الضحك

طبيعته ووظيفته في الحياة

الحكيم راجي عباس التكريتي



طبيعته ووظيفته في الحياة

الحكيم راجي عباس التكريتي

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 08 / شوال / 1443 هـ
فـــي 09 / 05 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرائـــي



الاهــــداء

القلقون في الدنيـا كثر، ولعل مضمون هـذا الكتـاب مـما يخفف عنهم عـاديـات الزمن ومصـائب الـدهر وكوارث الحياة.

اليهم اهدي هذا الكتاب !

المؤلف

مقدمـــة

الضحـك تنشيـط للنفس: تلـك حقيقـة لا افتراء. الضحـك تجديد لخلايا الدمـاغ: تلـك بـديهـة بلا استثنـاء، نضحـك، نحن بني الناس، مما نرى من بدوات. ونحن نضحك مما يعرض لنـا في حيـاتنـا هذه من مفـارقـات. ثمة ضروب من الضحـك شتى. فهنـاك ضحـك العقاب الاجتماعي للتأديب والتقويم.

وضحـك لنكتـة تقـال. وضحـك الاسترواح لمشهـد هـازل. وهنـاك ضحـك الاستخفـاف او الازدراء. وثمـة ضحـك مبعثـه الزهو والانتصار. وهناك ضحك الهستريا وسوى ذلك كثير.

وسواء اكان الضحك للاستهجان او للاستحسـان، وسواء كان ترويحا عن نفس، ام تهذيباً لمسلك، او تقويما لمشتط، فـان لـه، على اية حال، وظيفة اجتماعية في حياة الانسان، جـد نـافعـة. وحين يتصـدى للبحث في الضحـك ومراميـه، طبيب بل حكيم، فلا ريب ان بحثـا كهـذا يستوفي اطرافـه ويستكـل مـآتيـه. اذا كان الضحـك للانسان سجية، يمارسه تلقائيا لانه من صميم فطرته التي عليها جُبل،

فان الانسان اليوم في عصرنا الراهن، احوج الى من يدله على فن الضحك، ذلك لان ضغوط الحياة الهت الانسان عن نفسه وصرفته عن شؤون ذاته، فراحت الضغوط هذه، تباعد بينه وبين الأنس والاستئناس، وتنأى به عن البهجة وكثرة مؤالفة غيره من الناس، لهذا فهو بحاجة الى من يقول له:

(ان الابتسام هو سر الحياة. هو الارتفاع فوق اذاها. هو الكبرياء امام مشكلاتها.)

وهذا هو رأي الحكيم راجي عباس التكريتي، وهو رأي ماأحرانا بان نتدبره، وهو يريد ان يقول لنا ان الانسان قد انفرد بملكة الضحك، والتبسم ضرب منه بل دال عليه، وهو، بعد، يدل على قوة الادراك والتصور والمشاركة الوجدانية سواء كانت ظاهرة ام مستكنة. فللضحك بواعثه النفسية وهو فضلا عن هذا، من عناصر الروابط الاجتماعية، ينطوي على التفاؤل ويفضي الى التفاعل حين يتعاطاه الانسان في الوقت المواتي وفي الظرف الموائم، ذلك لان:

(الضحك هو ضرب من المناعة النفسية)

ورأي الحكيم راجي هنا انما هو تعبير عما - يحتبس في ثنايا النفس البشريـة. اذ لاشـك في ان الضحـك يكـون في كثير من الاحيان تنفيسا عن شعور تدريجي او مفاجئ يفوق طاقة المرء، اياً كان مأتى ذلك الشعور، سواء من الفرح او من الحزن والاحباط، ولهذا كان نيتشة قد قال من قبل في معرض حديثه عن ارادة القوة: (ان الانسان دون غيره يعالج من الالم المبرح في هذه الدنيا ماقد الجأه الى اختراع الضحك).

ورأي نيتشة في جملته صائب، بيد انه اخطأ في جعله الضحـك عنـد الانسـان اختراعـا. اذ ان كلمـة (اختراع) تشير الى الضرورة وانتفائها، وتستبعد فكرة الكينونة بالفطرةوالوراثة. والضحك عند الانسان انما هو من واقع دوافعه الفطرية الموروثة لا جدال. وحسنا صنع الحكيم راجي عندما اشار في معرض حديثه عن نوازع الضحك الى انه (غريزي)، وهذه حقيقة علمية تؤيدها أدبيات علم النفس الحديث.

☆ ☆ ☆

الانســـان عقــل واع، كثير الـوعي، وهــو قـــادر على ان يستجلب السرور ويعرف مصــدره ومــأتــاه، كما هـو يستشعر الالم ويقدر عقابيله ومداه. فـالانسـان كثير القـدرة، ومع فـائض قـدرتـه هذه فما اكثر مايخرج الانسان عن مـألوف الحيـاة وموصوف الحـدود، لهذا نجد الحكيم المؤلف يستشهد برأي كان قد قالـه الجـاحـظ، واثبت مـايمـاثلـه برجسـون اذ ذكر (**اننـا نضحـك من الاشخـاص والاشياء لخروجهم عن طبيعتهم الاعتيادية**) افليست هـذه للضحك وظيفة اجتماعية ؟

(فـالضحـــك اذن لجـــام اجتماعي يقــوّم ماعجز عن تقويـمـه القـانون او النظـام او العرف العام)

من محاسن الآراء التي ضمنهـا الحكيم راجي تضـاعيف مؤلفـه هـذا، انـه قـد بين بجلاء بـان الضحـك من الروادع القويـة للنوازع الانسانية، كقوله المستقى توا وكقوله ايضا:

(ان الضحك يعاقب بعض العيوب
كما يعاقب المرض بعض انواع الافراط)

نقول مع بالغ ايمانه بهذا كله، فهو لم يذهب مذاهب المتزمتين ممن يظنون، خطأ، بان التبسم او الضحك انما هما من دلائل الطيش او فيهما ماينم عن خفة في الوقار. ومااعيت المؤلف الامثلة، ساقها يدلل بها على ماذهب اليه. فقد تمثل بسجايا الرسول الكريم محمد ﷺ اذ: (**كان يمزح ولا يقول الا حقا**) وتمثل بحوار يحيى وعيسى عليهما السلام، واوضح كيف ان عيسى كان طلق المحيا بساما، فحسم تحاور النبيين الكريمين الرد الآلهي:

(احبكما اليَّ البسّام)

الضحك عند الانسان ملكة فردية تماماً، كما هي ملكة اجتماعية. لها دواعيها النفسية، كما ان لها مسبباتها الفسلجية. وهذه الجوانب كافة استوفاها المؤلف موثقا اياها بمصادرها حيثما تطلبت الضرورة ذلك، وانه بمهارة المؤلف المتمرس عارض الآراء وناقشها، وأبدى كلما اقتضت الحاجة، الافكار وضاهاها.

الضحك مسبار الحس الانساني، به يترجم عن عميق عواطفه، وبه يعبر عن مكنون تعاطفه. فهو معيار التحسس الوجداني. والناس في عصرنا هذا اضحوا بمسيس الحاجة الى من يدلهم على طريق المسرات ترويحا وتخفيفا لما يكون قد ران على النفس من غيوم الحياة، ففي التبسم والضحك يكمن التعبير عن التفاؤل والتطلع الى الامل. لهذا اكد المؤلف في مستهل كتابه على الجوانب هذه كافة، ناصحا الانسان - وهي نصيحة مصدرها طبيب حكيم - بان يبدد غياهب المتاعب والاوصاب بالركون الى التفاؤل والتبسم والضحك لكنه في نصيحته هذا قد التزم جانب التوازن وهذا مايرتجى من شخص مثل راجي.

فلا يبدو ان هناك صيغة واحدة بمفردها تستوفي دواعي الضحك كافة. فالى جانب ماتقدم، وفي ضوء مااستدل عليه المؤلف من شواهد موثقة، هناك من يزعم ان الاساس في الموقف الباعث على الضحك هو للتغلب على مايعترض سلوك المحبة من عوائق. وهذا يدعو، لاغرو، الى اعتبار الضحك استجابة اجتماعية تستثار في مواقف متعددة ولها غايات محددة. والى مثل هذا كثير اشار الحكيم

راجي. لهـذا فهو قـد عرّج على مختلف ضروب المعرفـة ينقب بين ثناياها عما يعزز بواعث الضحك عند انسان القرن العشرين بخاصة.

للحياة لذاذتها لمن احس العيش فيها. وهيهات. طلبنا، نحن بني الناس، لنـا فيهـا راحـة بـال ونشـدنـا فيهـا طمأنينـة حـال. فعز المطلب او استحال. لكننا ادركنا اننا قـادرون على مغـالبـة مـايوقر ركب المسير. فغدونا نلتمس لانفسنا مانتنفس به عن همومنا، ومـانفرج به من وطأة كربتنا، جعلنا نبحث عما يضحكنا لتبديد مـايتلبـد في سماء النفس الضـاحيـة من غيـوم كامـدة. ولِم لا نفعل هـذا؟ ومتى صحت العزائم وصدقت همم الرجـال حركت الرواسي، لاريب. لهـذا ابتدع الانسـان بـدعـة المهرجين المضحكين، مثلا، يسومون انفسهم او يسامون، وهم راضون، خسف الايذاء او الاذى لاستثارة الضحك من الناظرين والمشاهدين. فكأن الانسان يتدرع بـالضحـك ينتزعـه من نفسه انتزاعا ليتحدى هجمة الحياة وضغوطها. وحسنا يصنع.

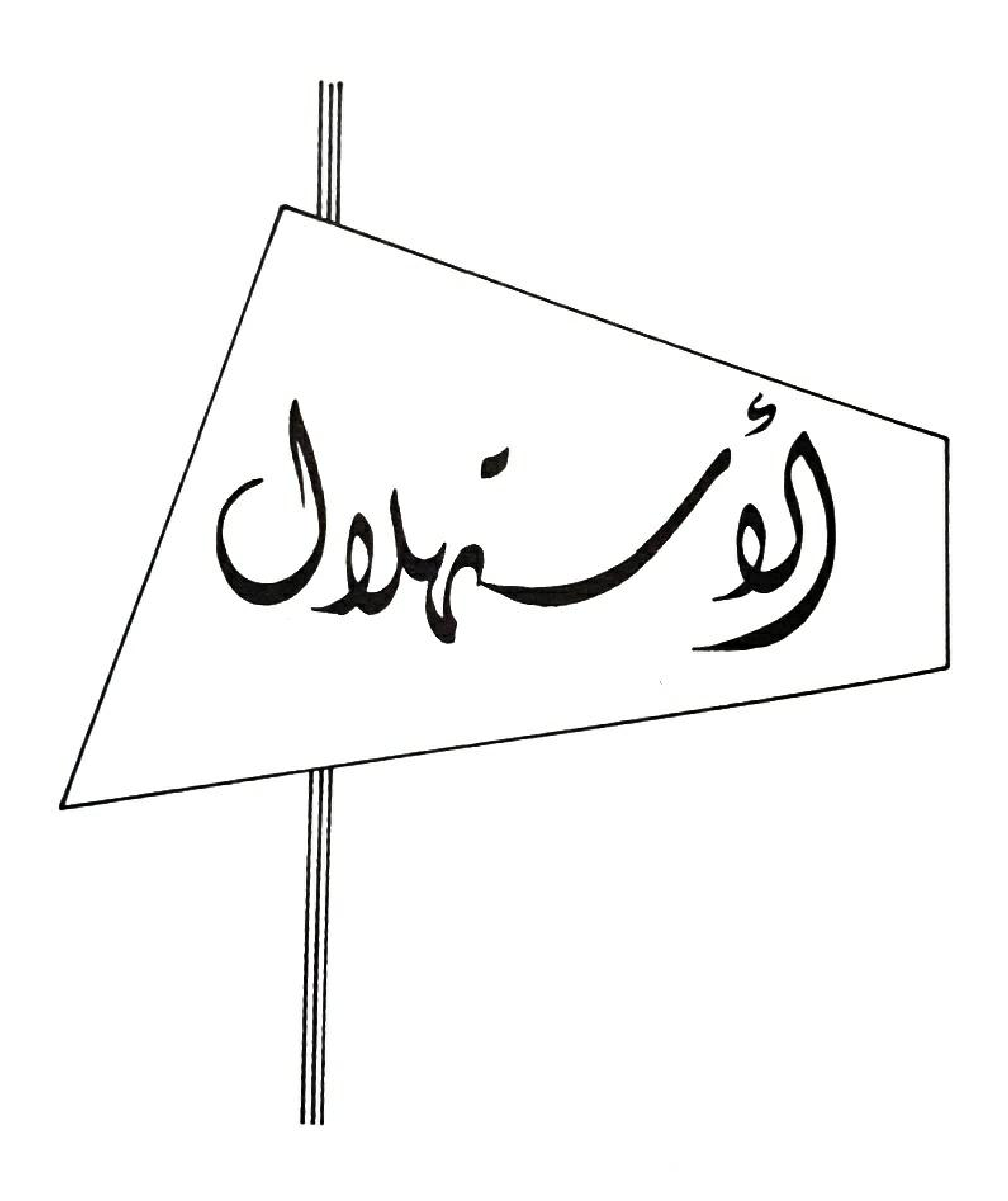
افليس الضحـك في مواطنـه المـلائمـة للنفس بلسما! امـا كان العرب، وهم على ماكانوا عليـه من رصـانـة ووقـار، يتفكهون، وبكل

مايعرض لهم يتندرون! حتى اصبحت الفكاهة عندهم خصيصة من خصائصهم، بل كانت لهم سجية من سجاياهم. اختصوا بها انفسهم ليغالبوا ضرورة الحياة القاسية، وليجالدوا قساوة دنياهم العاتية.

ومما يجعل كل ذلك ممكنا، هو ان يأتي عرض الموضوع واستعراض منادحه كافة بقلم طبيب يدرك ان لحظة ضحك انفع من عقار دواء قد لايجدي ان كان في غير اوانه.

ولئن تأتي النصيحة بالضحك من لدن طبيب حكيم، فتلك مزية اخرى؛ بل هي وصفة مجانية، قوامها المشاركة الوجدانية. وذو اللب من غالب عوادي الزمان بعزم من ارادة الحياة.

عبد علي الجسماني
قسم علم النفس - كلية الآداب
جامعة بغداد


الاستهلال

الاستهـــــلال

مظاهر الحيـاة كثيرة ومثيرة، فمنهـا مـاتعبت الانسـان فنفر بعيداً عنها واخرى قربته فاستمر بالبحث عن وجودها.

ومجموعة هذه الظواهر مما اوجدت بعض المعضلات الانسانيـة التي حيرت العلماء من جوانب متعـددة فلسجيـة ـ نفسيـة ـ فلسفيـة واجتماعية وادبية..

وابرز هـذه الظواهر هو الضحـك الـذي لم يتفقوا على تفسير محدد له ولربما لاتو جد ظـاهرة انسـانيـة تنـاولت الكثير من البحث والتتبع دون تحديدها مثل ظاهرة الضحك.

واذا ماتتبعنا تلك الابحاث نجد احد المفسرين لظاهرة الضحك من كونها تفاعلا عاطفيا الفينا غيره ينفي ان للعاطفة وجوداً لها واخر ميز الانسان عن الحيوان بأنه ضحّاك بالطبع على حد قول المناطقة، فينبري (دارون) باعتراضه القائل: (ان بعض القردة تضحك ايضا) ويأتي البعض قائلاً: « ان الضحك ظاهرة اجتماعية » ودارس غيره يوضح بانها (احساس بعض الامزجة الاستعلاء والترفع والتسلط والتهكم على الآخرين) وهناك نجد باحثا يقول بانها:ـ « شعور غامر مفاجئ بالبهجة والسعادة » فيعارضه فيلسوف موضحا « انها تنفيس عما يجيش في اعماق النفس من حزن صامت » وقد قيل: « اشد المصائب ماتضحك » .

ويطرح فيلسوف فرضيته «بانها فائض طاقة تندفع على هيئة شحنات انفعالية ..»

برغم كل هذا وما استقرأناه وظاهرة الضحك موجودة كغريزة موروثة لدى الانسان فلن تتفق ولم تتوصل مختلف المدارس النفسية والفلسفية والفسلجية والاجتماعية الى تعريف علمي موحد لتفسيرها وتعليلها.

من انها ظاهرة فسلجية نفسية اجتماعية في الوقت نفسه.

لعل القارئ يكوّن رأيا خاصا بعد قراءته هذه الصفحات، وهو يأخذ هذا الرأي وذاك وهذه النظرية وتلك ليكون فكرته ورأيه ببصيرته.

اننا قد وضعنا آراء ووجهات نظر بشكل موضوعي بعيداً عن تعقيدات الفلاسفة ونظريات علماء النفس واستنتاجات علماء الاجتماع.

وسأطرح آرائهم بشكل مبسط ومختصر وموضوعي واترك الحكم للقارئ - ولا اقوى ان ادلي بدلوي او افرض رأي لان، محاولة من هذا القبيل كالذي يقف على التل ويحاول مطاولة شعاع الشمس! جلّ ماابتغيه هو ان اطرح الموضوع امام اولئك الذين اتعبتهم الحياة وارهقتهم مشاكلها وغشيت ابصارهم غمامة دكناء - لاذكرهم بان العالم لايزال بخير وان الابتسامة البريئة كفيلة ان تزيل تلك الغمامة السوداء.

اذا كانت الضحكة نابعة من القلب فانها لقادرة على ان تبعث القوة لازالة كل هموم الدنيا المثقلة بكاهل اليائسين.

ان الله خلق الدمع وخلق الالم وخلق الضحك وكلها نِعم من نِعم السماء للانسان ولها وظائف ومهام لو كتبنا الكثير عنها لعجزنا ويعجز اي انسان ان يتوصل الى كنهها كما هو الحال مع ظاهرة الضحك..

تناولها فلاسفة اليونان وربما فعل قبلهم البابليون والمصريون.. وامتداداً الى عصرنا الحديث، لم يتفق العلماء على تفسير متفق عليه لهذه الظاهرة الواضحة التي تصادفنا كل يوم بل كل ساعة!

فكيف اذن بالظواهر الاخرى الخفية في اعماق الانسان.

سنورد آراء ونشير الى تأملات وفرضيات وقد نبدي رأيا هنا وتعليقا هناك، توضيحا لفكرة واكمالا لخاطرة وشرحا لنظرية او فرضية ونضع هذا وذاك امام القارئ ليقرأ ويبتسم وان نبعث النشوة والسعادة والانشراح في اوصاله جميعا ليترك هموم الدنيا

وآلامها جانبا ولو لبعض الوقت.

ان معظم الناس عبارة عن (آلات نزوية) تحركها الـدوافع والنيـات المريضـة وتقتـل فيهـا الشعـور العميـق بـالحيـاة والسرور الداخلي..

فـالسرور يختلف عن الرضى الـذي يعني الطمأنينـة المـاديـة والنفسية اي انتفاء الاحباط والصراع.

بينمـا السرور هـو خبرة شعـوريـة مجبـولـة بمعـانـات والم واكتشاف الاسرار والحقائق.

والرضى نجده مثلا في البطون المتخمة وفي الراحة الجسـديـة والنفسيـة والفرح نجـده في الآلام وفي الصراع الفـاعل في التحـدي في الايمان وفي الاندفاع والمحبة العفوية[1].

اننـا ننفعل حين نرضي حـاجـاتنـا وميولنـا ارضـاء فجـائيـا لانتـوقعـه، حين ينخفض التـوتر على حين فجـأة ويـأخـذ الابتهـاج والتهلل والفرح او الضحك بل قد نأخذ بالبكاء من شدة الفرح.

---

(١) الدكتور عسان وجوريف خيش سيكولوجيا الاتصال والعلاقات الانسانية . دار النهار للنشر/ ٣١٩

يضع اغلب العلماء وبخاصة علماء النفس - ظاهرة الضحك ضمن الانفعالات التي تشمل جميع الحالات الوجدانية - رقيقها وغليظها.. لطيفها وقاسيها.. وبذا يجمعون سوية الخوف والغضب والفرح والحزن وبين الشعور الساري الهادئ الذي يجده الانسان في نفسه وهو يتأمل منظراً جميلاً او يقرأ كتاباً مسلياً فهي جميعها حالات وجدانية تصحبها اعمال فسلجية داخلية وتعبيرات حركية مختلفة كانفعال الخوف والخجل والضحك(٢).

ويؤكد علماء النفس على ان الانفعال والعاطفة من مظاهر الحياة الطبيعية ولكن الانفعال يتعرض الى التغيير في القوة والحدّة في ظروف نفسية معينة قد تكون مفهومة ومقبولة احياناً (كالغضب والحزن) او ان تكون غير مقبولة وغير مفهومة بالنسبة للناس(٣) والمحيط وهذه هي الانفعالات الشاذة المعدودة من الامراض النفسية .

---

(٢) الدكتور احمد عزت راجح، اصول علم النفس، المكتب المصري. الاسكندرية ص١٤٥.

(٣) الدكتور فخري الدباغ، الطب النفسي، جامعة الموصل ص٧٥

وهناك وصف في ابحاث لانواع الشخصيات التي يذكرها علماء النفس من غير ان يوفقوا الى تحديدها بالضبط ووضع حدود وضوابط بين هذه الشخصية وتلك ومما يزيد التحديد تعقيدا هو اختلاف هذه الشخصيات من وقت لآخر ومن مكان لمكان..

وهذا مدخل يزيد الموضوع تعقيدا والباحث حيرة نجد من الاوفق المسير عبر صفحات هذا الكتاب وننتقل بين مختلف الآراء والنظريات والفرضيات سواء اكانت فلسفية او نفسية او فسلجية، اجتماعية ام ادبية وبعد ان نأتي على نهاياتها نخلد الى انفسنا لنفكر سوية بظاهرة الضحك!

☆ ☆ ☆

كلما ارقني العمل واتعبتني المطالعة والقت اعباء الحياة والكفاح اثقالا على كاهلي، ووجدت نفسي على وشك ان اضيق ذرعا بهذا وذاك اهرع منها ـ ولااهرب ـ الى احد رفوف مكتبتي منتزعا احد دواوين الشعر القديمة منها او الحديثة فاجد متعة في

قراءة الشعر او تناول بعض الاسفار، القديمة واغوص في اعماق الماضي واجد فيها متعة غامرة وحكمة عميقة وفلسفة وادباً واطلاعاً على حياة كانت طافحة بالعطاء والمثابرة. او اتناول بعض المجلات والكتيبات التي تتناول نوادر وطرائف وفكاهة الادباء والساسة والاطباء. فاجد فيها متنفسا للهموم ومتعة كبيرة وفائدة جمة، لما تضمنته هذه الطرائف والظرائف من مفارقات عجيبة وحكم بليغة وتوجيهات صائبة ومعاني عميقة لايدركها من يقهقه عاليا.

والذي يكتفي بأخذ معانيها الظاهرة دون مراميها البعيدة.

وعن لي ان اجمع النوادر والفكاهات والطرائف التي تتناول الطب والاطباء والمرضى والمستشفيات قديمها وحديثها لتكون في متناول يدي ارجع اليها كلما ضاقت بي الحياة اليومية وادلهمت الساعات واحجبت الغيوم السوداء اشعة الشمس واختفت خيوطها الذهبية واكفهرت الدنيا.

كنت افلسف الحياة واقول بان هذه الغيوم السوداء التي حجبت الشمس سترسل المطر المعطاء لتسقي موات الارض وغدا

ستورق الاشجار وتزهو الازهار المتفتحة ويحل الربيع في الارض الجرداء وتشرق الشمس مرة اخرى على الارض بعد ان اكتسيت بيساط اخضر ـ فترى الغيوم السوداء التي حجبت الشمس لبعض الوقت ـ هي علامة من علامات الخير والعطاء .

مع الايام ومطالعاتي غير المنقطعة واتصالاتي وملاحظاتي مع المرضى قد تكونت مجموعة من هذه الطرائف والظرائف حينذاك عن لي وبتشجيع كثير من الاصدقاء والزملاء ان انشر هذه المجموعة لتكون خير نديم لمن هم على اسرة المرضى متنفسا لمن ارهقتهم مشاكل الحياة واضنتهم دروبها الشائكة وسبيلا لمن ملّ طريق الحياة وضياءً واشعاعا للذين اسودت الدنيا باعينهم واكفهرت سماء حياتهم الحلوة بان الشمس ستشرق ثانية ...

ولابد لنا ان نواجه المشاكل مهما تعقدت، والحياة مهما صعبت مسالكها وتشعبت دروبها ولابد للانسان ان يكون متوافقا مع حياته لان النظر الى السماء يؤذي فقرات العنق وطأطأة الرأس تولد الدوار، والصداع وانما خلق الله الانسان لينظر الى امامه دائما.

الانسان هـذا المخلوق الصغير مقـارنـة مع ملايين البشر ـ كبر ام صغر الانسان ـ ارتفع ام انخفض هو انسان ـ بلحمه ودمه وعظامه وجلده فلا هو بـالـغ السماء علـواً ولا مخترقـا الارض طـولا ـ فكيف بنـا اذا علمنا ان جرمنـا السماوي هو جزء من مجموعتنـا الشمسيـة ـ ومجموعتنـا الشمسية ـ هي جزء من مجاميع شمسية اخرى غيرها فندرك حينئذ كم هو الانسان صغيرا في هذا الوجود هـذا الانسـان الـذي يعلو ويهبط ويصعر خـده للنـاس ـ ويظلم ويقتـل ويعـذب ـ هـو نفسـه ذاك الانسان الصغير ـ الصغير ـ جدا في هذا الوجود غير المحدود.

هكـذا رغبت مرة اخرى ان اكتب بعض الشئ عن خـواطر الطرائف والنوادر علّها تنسي بعض الآلام او قد تكون اشعـاعـا منيرا يضيئ للبعض طريق الحياة ـ فلربما تكون توجيهاً وحكـمـة وثقـافـة لمن اراد ان يدلف الى اعماق معـاني الكلمـات ـ واردت بهـا ان تكون عونـاً لبعض الزملاء لفهم مرضـاهم ونـوعيـة مراجعيهم بـدلا من ذكر الطـلاسم والمعميـات، وادراك مـايفكر بـه المرضى، ومـاهـو مستـوى ادراكهم وتصـوراتهم عن المرضى والتـداوي والامكانـات المـاديـة ومشكلات البيت والحارة والمدرسة والسوق والحياة فـالانسـان سواء

اكان طبيبا او مريضا معلما او محاميا ضابطا ام جنديا حداداً ام نجارا تاجرا او فنانا - كائنا فيلسوفا في هذه الحياة فلا بد للانسان ان يكون ذانزعة فلسفية والا سحقته الحياة، او تناولته انياب البشر، او قتلته هموم الدهر، والحياة وهمومها لاتسحق الا الاذكياء من الناس الحساسين بما يحيط بهم، اما الغبي واخو الجهالة فلا تهمه الحياة ومشاكلها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، مصداقة المثل الشعبي: « لا يهتم ان شرقت او غربت »،

وقول الشاعر:

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله
واخو الجهالة بالشقاوة ينعم

فالى هؤلاء العلماء - المثقفين - الحساسين ادعو لهم من كل قلبي مخلصا ان يهبهم الله الصبر وان يفلسفوا حياتهم ويتدرعون الصبر كلما داهمتهم الاحداث او نغصت حياتهم مشاكل البشر - واكفهرت الدنيا - ان يبتسموا قليلاً او ان يضحكوا قليلاً - ان يتذكروا نادرة مناسبة او فكاهة موافقة - وان يناقشوا مع انفسهم وبعمق لمعنى

ومغزى تلك النادرة او الطرفة بدلاً من ترك الضحكة تمر عاليا وسريعا ـ وتذهب مع ضجيج الحياة .

الابتسامة اكثر استيعابا واعمق فهما واسمى تعبيرا وان لاتكون الابتسامة التي عبر عنها الشاعر العربي المتنبي:ـ

اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث يبتسم

حاشا للانسان ان يبتسم بوجه اخيه ويغدر به، او تنبلج اسنانه بتلك الابتسامة البيضاء وتتحول تلك الاسنان الى انياب كاسرة للنهش والتنكيل ومص الدماء.

بل انما تكون الابتسامة عريضة صافية معبرة عما يختلج في تلافيف الدماغ وقاعدته من تفاعلات مشحونة بالاخلاص والمحبة لتنعكس نبضات القلب خافقة بالحب والعطف ومايدور في النفس من رضى وهدوء وراحة عقل وتفكير صادق وتفهم عميق لما يقصد بهذه الطرائف من حب النوع الانساني، وتجنب الانسان بعض المساقط والزلل.

الهدف الذي ابغيه هو ادخال المسرة والمتعة البريئة والفائـدة الملموسة التي يجب ان تدخل الى نفس القارئ ـ الى خلايـا دمـاغ كل انسان يحمل بحق مفهوم الانسان !!!

ومن هـذا استعمـل العرب كلمـة طبيب لمن يـداوي النـاس سواء اكانت المداواة بالاعشاب ـ النباتات ـ او المعادن ـ او منتجـات الحيوانات او بالايحاء والتحليل والسحر والطلاسم احيانا.

وكلمة طبيب في اللغة العربية ـ تعني الرفق واللين والمـدارة ومن ذلك قولهم:ـ

ـ من حب طب اي رفق وداري ـ

ومن ذلك سمي الطبيب طبيبا لترفقه ومداراته للمرضى.

وقالت العرب:ـ

ـ هو طب بالامور اي عالم رقيق ـ

ومن هنا قـال الشـاعر الرقيق ـ شـاعر الحب والغزل عمر بن ابي ربيعة وهو يصف مغنية رقيقة:ـ

فتراهــا طبــــة عـــالمــــة   تخلــط الجـــد مرارا بـــالهــزل

ترفـع الصـوت اذا لنت لهـــا   وتراضي عنـد سـورات الغضب

وكذا اطلق العرب كلمـة الحكيم على الطبيب ومعنى الحكمة هـو ادراك معنى الشئ ومغـزى الفلسفـة وفي الطرائف والنـوادر طب وفن وفلسفة وحكمة.

☆ ☆ ☆ ☆

وعكف الفلاسفة والعلماء والحكمـاء على تفسير معنى الضحـك وفسلجته وفلسفته وتأثيراته النفسية وامتدت الدراسـات لتلقي بعض الضوء على تأثير الضحك بانواعـه، الهـادئ والصـاخب على الوظـائف والتغييرات العضوية لجسم الانسان ووجدت هنـاك الكثير من الآراء والابحاث والنظريات والفرضيات والمدارس لاهمية الضحك وتـأثيره، النفسي والعضـوي على جسم الانسـان،وقلت لاتخلـو من فـائـدة ان اصدر بها كتـاب طرائف الاطبـاء ـ وهكـذا كانت وكان الهـدف هو شرح الطرائف والنوادر بهذه المقدمة واذا بي افاجأ ان يكون للمقدمة اطراء وصدى اكثر من مجموعة الطرائف والظرائف والنوادر.

وسئلت مرة اخرى ان انشر هـذه المقـدمـة للقـارئ بعـد ان مضت عدة سنوات على نشر كتـاب طرائف الاطبـاء ست سنوات او سبع - هل ينسى الانسان بهذه السرعة .. ربما نعم - وربما لا ؟ وهذا يترك لعلماء النفس.

وهكذا توفرت مرة اخرى على المقدمة لأنالها بـالحـذف هنـا والاضافة هناك - وتقديم وتأخير - وزيادة ونقصان هادفاً ان تكون اكثر فائدة واعم نفعاً واسهل هضماً واقوى حجـة واشمل تـأثيرا لنـدفع الناس لفلسفة حياتهم برسم ابتسامـة عريضـة على الحيـاة وارجوزات الحيـاة - وكما يعبر الكثير من الفـلاسفـة - بـان الحيــاة مسرح كبير - ونحن البشر نتقاسم الادوار - فان صح ذلك فلا بد وان نجيز لانفسنـا بعض ســاعــات او دقــائــق او لحظــــات - وان نجلس على كراسي المشاهدين لنبتسم على بعض مشاهد الحياة التي يمثلها غيرنا..

☆ ☆ ☆ ☆

يولد الانسان - من نطفـة - فمضغـة وتحملـه امـه وهنـاً على وهن وفصـامـه في عــامين ويكبر ويشتــد عـوده وتقـوى عضـلاتـه

- ويسعى على هذه الارض ويكد ويشقى ويسعد ويحزن، ويخاصم ويصاحب، يغضب ويرضى، يسكت ويتكلم، ينام ويحلم، يستيقظ ويتحرك، يتـألم ويحـزن ويبكي، يهـزل ويجـد، يبتسم ويضحـك - يمرض ويشفى - ونهاية مطاف الانسـان - انه يموت - وينتقل الى رحاب الآخرة الواسعة.

ان الجموع الحاشـدة الغـالبـة من النـاس لاتعرف كنـه تلـك الحوادث - لايعرف الانسـان تفسيراً وتعليلاً للكثير من الظـواهر التي تتفاعل وتختلج في داخله!

لماذا يأتي الانسان بهذه الحركة او تلك ؟

لايعرف كيف حدث هذا او ذاك ؟

ولماذا حدث ؟

كل مايعرفه ان قد ابتهج ودخلت المسرة الى نفسه فابتسم او ضحك ملْ شدقيه، او انه تـألم وحزن وانسكب الـدمع على خـديـه. ولكنه لايعرف تعليلا لذلك - لايدرك شيئـا عن عمل الـدمـاغ - او انتقـال الشحنـات الكهربـائيـة عبر الاسلاك - الاعصـاب المحيطـة او تقلص العضـلات - او انـدفـاع الـدم في الشرايين او انتقـالهـا عبر

الشعيرات الدموية ومن ثم رجوعها بالاوردة ـ الى القلب ـ ولا يعي شيئا عن تلك الاعمال المتواصلة داخله كيف تعمل الكلى وكيف تتقلص الامعاء ـ وكيف يهضم الطعام ـ وكم هو معقد عمل الكبد والكريات البيضاء ـ والحمراء ـ والغدد الصماء وغير الصماء ـ ولا يعي شيئاً عن الاحاسيس والتيارات الكهربائية التي تعمل الحركة ـ الارادية وغير الارادية .

☆ ومالنت الا كجرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر ☆

ومن الظواهر الطبيعية التي نمارسها كل يوم ـ ونصادفها دائما مع انفسنا ومع اصدقائنا ـ ومعارفنا هي ظاهرة الضحك ـ ولكن هل ندرك الاسباب والدوافع الخفية التي تحدث الضحك ـ وماهي فسلجة او فلسفة الضحك ـ ماالفرق بين الابتسام والضحك ؟

ماالفرق بين النادرة والنكتة ـ وماالفرق بين النكتة والاستهزاء ومن ثم ماالفرق بين السعادة واللذة ـ ماالفرق بين هذا وذاك ؟

يقول بعض الخبراء انك اذا لم تضحك لنكتة او تهتز لطرفة ضجك عليها الآخرون فلا بد ان تراجع الطبيب الاختصاصي بعلم النفس لان خلايا الضحك التي تستقر في النصف الايمن من الدماغ قد اصابها التلف، او على اقل تقدير قد شاخت وتلبدت وتبلدت عن الاستجابة وهذا مايفقدك القدرة على تذوق النكتة والاحساس بها والتمتع بمعناها والضحك عليها!!

ويقال ان علماء الترويح قد اكتشفوا ان نصف الدماغ الايمن مسؤول عن الضحك، والنصف الايسر مسؤول عن تحليل النكتة او الاستجابة بالضحك، فانها تغدوا عاطلة عن العمل ويعجز الانسان عن الضحك.

وان الكثير من القبائل الافريقية قد اكتشفت اهمية الضحك وتمارسه باسلوب او بآخر، واحدى هذه القبائل في كينيا تمارس عملية الضحك يوميا بطريقة جماعية، حيث يجلس افرادها في حلقات كبيرة عصر كل يوم وينخرطون في ضحك متواصل لمدة

ساعة وبهذا يتخلصون من هموم النهار واعباء الحياة التي تصادفهم خلال اليوم(٤).

وكذا اثبت الطبيب الاميركي (وليم فراي) ان الجانب الايمن من المخ يحتوي على الاحاسيس والانفعالات التي تساعد الشخص على الضحك الذي يعتبره الطبيب من اهم التمرينات للجسم حيث ان الضحك يعمل على زيادة نسبة الادرينالين في الدم والذي يعمل على تنبيه القلب. واوضح هذا الطبيب ان الضحك يسبب نوعاً من الاحساس بالسعادة ويشبه الى حد كبير تمرينات الجري التي يقوم بها الشخص وهو في مكانه(٥).

وفي عام ١٩٧٦ نشر الكاتب الامريكي المعروف (نورمان كوزنز كتابه الشهير - كيف عالجت مرضي - والذي جاء فيه ان من اهم وسائل المعالجة كان مشاهدته لثلاث افلام هزلية مضحكة في اليوم.

---

(٤) ملحق جريدة الوطن الكويتية الخميس ١٢ يناير ١٩٨٢

(٥) الثورة البغدادية ١٩٨٢/١١/١٥.

واجريت ابحــاث كثيرة عن تــأثير الضحــك على الصحــة وانعقدت مؤتمرات مخصصة لتأثير الضحك على الصحة.

فــالضحــك مثـلا يحرك عضـلات البطن والصـدر والكتفين، وكذلك فانه ينشط الدورة الدموية.

وقد شبهه احد الاطباء (بالهرولة وانت جالس).

وقـال طبيب آخر ان الضحــك يطيـل العمر لانــه يخفض درجة الضغط والتوتر العصبي، كما انه يزيد من كميـة الادرينـالين في الدم وكذلك يشعر الضاحكون بالنشاط بعد الضحك.

امـا علمـاء النفس فيقـولـون ان الرجـال الضـاحكين عــادة رجالل مسـالمون طيبو القلب لانهم يفرجون عن طـاقتهم العـدوانيـة بالضحك[٦].

الحياة مليئة بالجد والجهـد والتعب والمشـاكل المعقـدة والآلام والمآسي.. ولابد من منفذ من ذلـك الضغـط في الحيـاة ـ وللنـاس ان

(٦) جريدة الراصد البغدادية العدد ٦٦٧٦ـ١٢ـ١٩٨٢/١٢/٢٥.

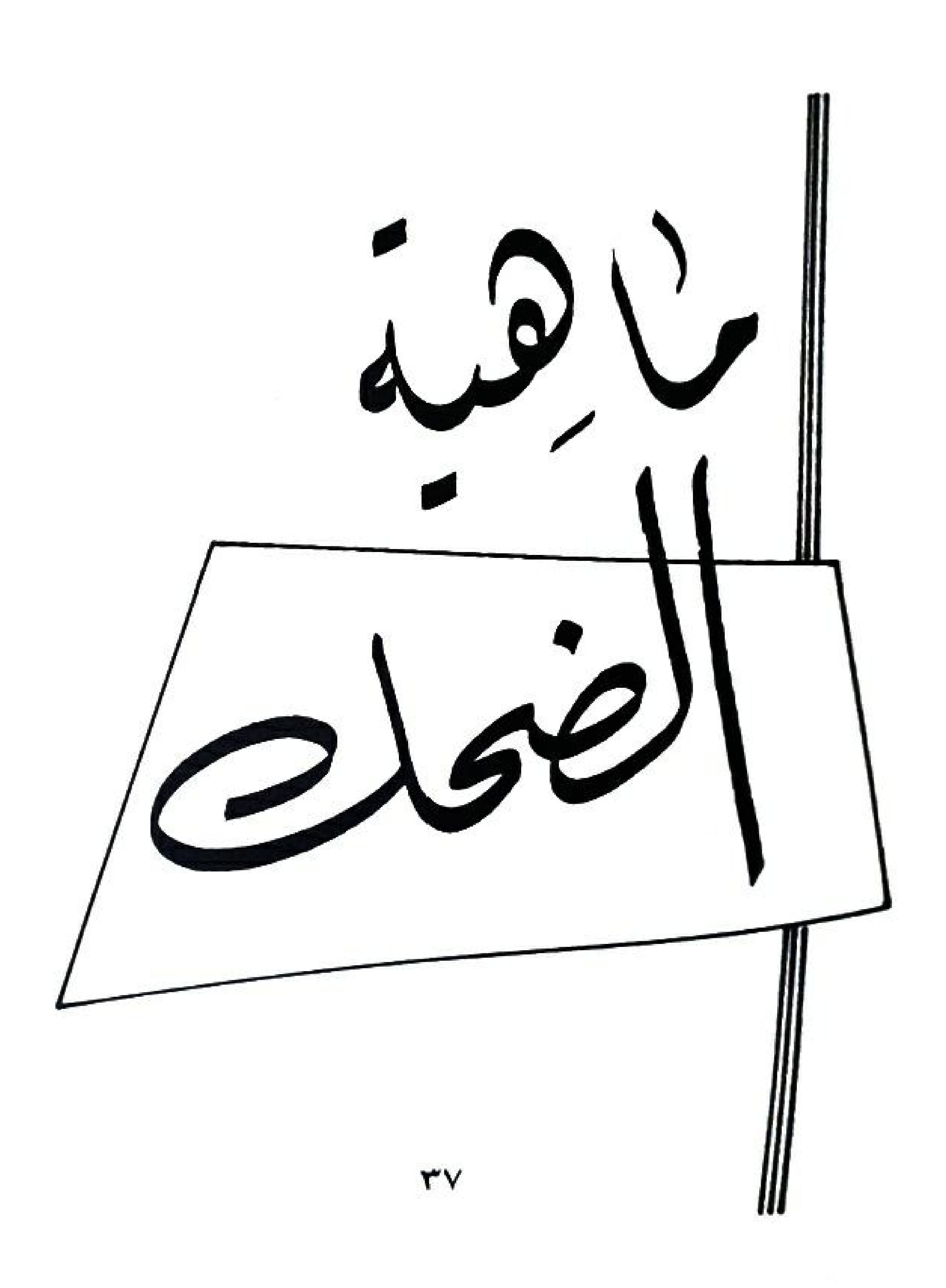
يستريحوا من عناء الجد الى حلاوة الفكاهة ـ للتغلب على مآسي الحياة بالضحك البرئ لاحداث توازن لفكر الانسان.

الناس متفاوتون بطبيعة تكوينهم واخلاقهم للاستجابة للضحك والفكاهة وقد خلد التاريخ الكثير من الناس الذين اجادوا صناعة الضحك والفكاهة النادرة ـ ومن تحضرهم الفكاهة فيجيدوا القاءها ويضحكوا الناس في اشد الظروف جدية وحزناً.

ربما كانت تلك الطرائف حقيقية وربما تكون مختلفة وربما تجمع بين هذا وذاك ..

وقد تكون النادرة صغيرة فاحاطوها بالزخرفة والزينة واخرجوها باسلوب على الفكاهة والانشراح والضحك وكالمثل الشائع

☆ وضعوا لها فلفل وبهار ☆


ماهية
الضحك



ماهية الضحـــك !

قد يتساءل القارئ، ونتساءل نحن معه.. وقد تساءل قبلنا كثيرون ادباء وفلاسفة ، اطباء وحكماء ، علماء اجتماع وعلماء فسلجة، وعلماء نفس..

ماهو الضحك، ومالمقصود بالفكاهة، وماهي دلائل ذلك وتلك، وماهي الابعاد الفلسفية لكل منهما وماهي الحدود التي تميز هذه عن تلك .

فقد نضحك لامور كثيرة، نضحك ونحن في غاية المسرة ونضحك ونحن على درجة شديدة من الالم.



وتضم الفكاهة من جانب آخر كثيراً من المعاني والمصطلحات الاخرى فهي تشمل السخرية واللذع والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح، والنكتة والتورية والهزل ..

ووضعت التعاريف وضربت الشواهد والامثلة لكل نوع من انواعها هذه. فالنادرة في الخبر القصير او القصة القصيرة التي تثير البهجة وتجلب الضحك وغالبا ماتكون مكتوبة.

اما الدعابة وهي اخف الوان الفكاهة وتثير فينا الانشراح وتدعونا الى الابتسام وقد لاتثير الضحك بمعناه المسموع.

وهذا النوع من الفكاهة لايحمل حقداً ولا لؤماً وانما يثير فينا المرح والشعور بالبهجة والسعادة. والنكتة فكاهة المجالس ولابد لها من شخصين على الاقل لاحداثها، وان ينتهز احدهما كلمة لصاحبه فيحورها او يبدل فكرتها حيث تطوي المعنى الذي قصده صاحبها او تغيره او تعكسه كلياً.. ويجب توفر سرعة الخاطر وحضور البديهة..

ونرجح طرفة الفكاهة لانها تسبب لنا الضحك وتغمرنا موجة من السعادة والمسرة ونشوة وبهجة عارمة.

وقد حاول الكثير من الفلاسفة والحكماء معرفة كنه الضحك واسبابه ومبرراته..

فمن قائل انه صنيع فسلجي « علم وظائف الاعضاء » وهو هنا تفسير مادي يتصل بانتقال المتغيرات الفسلجية انتقالا مفاجئاً من الاعصاب الى العضلات[1].

وبقدر ماكان هناك تساؤل وفرضيات ونظريات كل هناك بنفس القدر او اكثر التساؤل عن ماهية الضحك، وتردد هذا السؤال من قديم الزمان والى يومنا هذا، أثاره وحاول الاجابة عليه الحكماء والفلاسفة، والاطباء والادباء، والساسة والكتّاب، والشعراء والمؤرخون..

---

(١) د. شوقي ضيف ص١٣ - ١٤

ماهو الضحك؟ ولماذا يضحك الانسان؟
وهل يضحك مخلوق آخر غير الانسان؟
عرفوا الانسان بانه حيوان يفكر؟!
وعرفوا الانسان بانه حيوان ينطق!
وعرفوا الانسان بانه حيوان يضحك؟

فالفكر والنطق والضحك، خصائص ملازمة للانسان ونستطيع ان نقول ان الانسان يضحك لانه يفكر، وانه يضحك لانه يعقل ولانه ينطق، ويضحك الانسان لاسباب كثيرة، والواقع هناك ضروب شتى من الضحك! فهناك ضحك السرور، وهناك ضحك السخرية والازدراء، وضحك العجب والاعجاب، وضحك المزاح والطرب، وضحك الشماتة والعداوة، وهناك المفاجأة والدهشة، وهناك ضحك المرضى، فالشخص المسرور قد يضحك مزهوا بنفسه فرحاً وسعادة! والضحك الساخر قد تضحكه عيوب الآخرين او قد يضحك تغطية لعيوب اخرى يشعر بها في قرارة نفسه، وبهذا يحاول « شعر ام لم يشعر » بتوجيه الانظار الى عيوب الآخرين !

او انها تكشيرة الانسـان المتوحش المنتصر على فريستـه وقـد هذبتها الايام والسنون لتأتي على هيئة ضحكة ساخرة منتصرة..

والكثير من الطرائف المضحكة فيهـا فلسفـة عميقـة، وتفكير عملي عميق لعنصر المفـاجـآت، فقـد ضحـك الحضـور كثيراً على قـول (فرنكلين) وهم يكتبون وثيقة الاستقلال.

« يجب ان يتعلـق بعضنـا ببعض والاّ تعلقنـا على انفراد » واثـار في بعض النـاس ضحكاً كثيراً، القـول: « ليس الضحـك بـدايـة سيئـة للصداقـة ولكنـه نهايـة حسنـة »، وقـد يـأتي الضحـك عن سهو غير مقصود او عثرة لسان تغير المعنى المقصود او عقدة في كلمة .

فمن العثرات التي ضحـك عليهـا الاطبـاء لبعض الوقت، ان طبيبـاً كتب شهـادة الوفـاة فوضع اسمـه في موضع سبب الـوفـاة.. بـدلاً من موضع التوقيع او ان يأتي الضحك كنتيجـة خصبـة لسرعـة البـديهـة ومثال ذلك:

عنـدمـا اراد طبيب مستشفى المجـانين ان يتصـل برقم الهـاتف للتحدث على عجل، فجن جنونه لاهمال عاملة البدالـة ومراوغتهـا في



الجواب، وصاح بها محتداً:-

- ويلك الا تعلمين من أنا؟

وقالت في هدوء:

- لا..ولكني اعلم اين انت!!

او ان يأتي الضحك من مفارقات غير متوقعة كما حدث في عيادة احد الجراحين:

عندما دخل رجل على الجراح في عيادته فاعتقد الطبيب الشاطر ان الزائر مريض يطلب العلاج فاراد ان يوحي له باهميته وكثرة مشاغله محاولاً افهامه مقدماً ضخامة اجرته من غير مساومة، فعمد الى الهاتف وراح يقول لمحدثه الوهمي:

- نعم انا دكتور؟ انني مشغول جداً، تسأل عن كلفة العملية؟

- انها كما اخبرتك الف دينار، عدا تكاليف المستشفى والمخدر والاشعة والتحاليل، هذا حسن، سأحجز لك غرفة في المستشفى، تعال غداً وستكون العملية بعد غد .. الى اللقاء:

ثم وضع السماعة والتفت الى الزائر الذي دخل غرفته،

متسائلا!

- تفضل اجلس، مم تشكو وماعسى استطيع ان اقدمه لك؟

فاجابه الزائر:

- لاشئ.. انني موظف مصلحة التلفونات وجئت لتصليح العطب في الهاتف؟! ومن قائل انه صنيع نفسي ينشأ من افراغ التعب الذي يصيبنا في الحياة فيخرجنا الضحك من حياتنا الجادة المرهقة فنشعر بالراحة، وننطلق ضاحكين.

او انه انفجار يحدث من انتظار او من جهد يتحول فجأة الى لاشئ، بل الى فراغ مطلق.

ولبرجسون الفيلسوف الفرنسي كتاب اسماه «الضحك» وفيه وضح نظريته الطريفة عن اننا نضحك على الاشخاص ومنهم، لما اصابهم من تحول اخرجهم عن طبيعتهم العادية المألوفة لنا، اذ قد نراهم قد تصلبوا وخرجوا عن عقولهم وأصبحوا كأنهم آلات، فهم لايتصرفون تصرف الانسان الحر وانما يتصرفون تصرف الالات الصلبة التي لاتملك حرية ولا اختيار.

وهو يبدأ كتابه باننا لانضحك الآ على اشخاص، ولابد ان نكون هادئين تمام الهدوء حتى نغدو صالحين للضحك، اما اذا كنا في حالة انفعال فاننا لانسر حينئذ ولانضحك انما نسر ونضحك حين نكون في حالة عدم اكتراث، او عدم مبالاة.

ولابد ان نتصل بآخرين لنضحك فاذا كنا بعزلة او منفردين فلا نتذوق الضحك وانما نتذوقه ونطرب منه حين نكون في مجتمع او مع عدة اشخاص.

والناس قد يضحكون من غير ان يعرفوا لماذا يضحكون ولكن الضحك يريح اعصابهم ويشرح صدورهم ويقوّم اخلاقهم ويشعرهم بشئ من الصلة فيا بينهم، ويرى فيه ملكة النقد او ينبههم الى اخطائهم واخلاقهم، فهم يضحكون من كل مايحسون فيه مخالفة للمألوف.

يضحكون من الممثل الهزلي واشاراته وحركاته، ويضحكون من الصور الساخرة ويضحكون من المغفل والجاهل والبخيل والجبان، ويضحكون من المفارقات ومن الهزل ومن السباب والشتم

والهجاء ومن النوادر والنكت والمزاح.

.وهناك تقارب بوجهات النظر وتشابه في الافكار بين موقفي الجاحظ وهنري برجسون حيث ذكر الجاحظ « ان الضحك مع الجماعة اجدى وانفع من ضحك الانسان لوحده » ويقول برجسون: « لكي يحدث المضحك مايحدثه من تأثير لابد ان يتوقف القلب برهة عن الشعور لانه يتوجه الى العقل المحض وينبغي لهذا العقل ان يكون على صلة بعقول اخرى..

فنحن لانتذوق الضحك في حالة شعورنا بالعزلة، والضحك بحاجة الى صدى » ويرى الفيلسوف برجسون في دراسته الدقيقة للضحك والمضحك، ان اهم مايثير الضحك في الانسان هو طباعه او بتفسير ادق عيوبه الاجتماعية التي تتنافى مع الضمير الاجتماعي، فالضحك اذن لجام اجتماعي يقوّم ماعجز عن تقويمه القانون او النظام او العرف العام ..

فما يخفف الغضب مثل الضحك ؟؟

وقد سبق الجاحظ برجسون في هذه الملاحظة فان عبثه بمعاصريه لجاماً اجتماعيا للافراد والجماعات ذوي العيوب الاجتماعية الخطيرة او الطبائع الانسانية الشاذة يقوم ماعوج من الاخلاق وعجزت عن تقويمه القوانين والانظمة والاعراف.

و « توماس هوبز » يقول: « الانسان يضحك عندما يشعر بالتعالي على كل مايخرج عن حدود المألوف » ويحدو هكذا الكاتب (ليدفيس) حدو (هوبز) في تفسير الضحك ويصفه بانه هزة فجائية تهبط علينا نتيجة لشعورنا بسمونا ورفعة شأننا، اما بالقياس الى انفسنا في حالة سابقة من حالات نقصنا وضعفنا..

اما الفيلسوف الفرنسي (برجسون) فان رأيه مطابق لرأي الجاحظ، اذ يذهب الى: « اننا نضحك من الاشخاص والاشياء لخروجهم عن طبيعتهم الاعتيادية ».

ويقول الكاتب الكندي الفكه (ليكوك) « لقد بدا لي دوماً ان جوهر الفكاهة الصحيحة هو ان لاتكون مؤذية وان تكون خلواً من الحاق الضرر بالآخرين » ونلاحظ بصفة عامة، انه يندر ان يجد

ين جمهور الباحثين من فلاسفة وعلماء اجتماع وعلماء نفس وعلماء نلجة وكتّاب وممن اهتموا بدراسة هذه الظاهرة ـ ظاهرة الضحك من يقتنع بانتهاج سلفه في تفسيرها او اعتناق نظرية السابقين في شرح طبيعة الفكاهة(٢).

---

(٢) هيفاء عكارى الرافعي/ المورد ص٣٥


مَوقِفِ الاسلام مِنَ
الضحك

موقف الاسلام من الضحك

الاسلام والضحك

اختلف العلماء والفقهاء وتباينت وجهات نظرهم حول موقف الفلسفة الاسلامية من ظاهرة الضحك، وجاءت الآراء متباعدة، متباينة ومتناقضة بخصوص هذه الظاهرة الانسانية، حتى تواحدت المفاهيم والآراء ووضع الحدود الفاصلة لظاهرة الضحك. من حيث انها انسانية بكل ابعادها، وبين ظواهر اخرى لها علاقة مباشرة بالضحك، ولكن تبتعد هنا وهناك من حيث الاسلوب والمعنى والمقصد ـ فالسخرية ـ والاستهزاء والشماتة، واللطيفة والظريفة والملحة والنكتة والنادرة..

انــه لاجحــاف وظلم ولا اقـول جهـل مطبـق ان نتكلم عن ظاهرة من هذه الظواهر ونسحبها الى ظاهرة الضحك عموماً، اننا ان فعلنا ذلك لنكون كذلك البستـانيْ الـذي حرق البستـان برونقه وخضاره وثماره بحجة انه فيـه اشواكاً، فتواجـد الشوك، وحفر المياه الآسنة، وبعض الادغال لاتجحد رونق وثمار وعطاء البستان.

وكـذا المقصود بـالضحـك ـ هو الضحـك المنبعث من القلب وبنبرة خفية من غير سخرية او استهزاء ـ من غير كراهية وحقد ..

الضحـك الـذي يجلب المسرة والسعـادة الى قلب الانســان وانبساط سريرته والشعور بالبهجة والفرح من المستمعين ..

هنـاك فرق كبير بين رجـل الـدين البشوش المتســامـح الضحـوك ـ الـذي يلقـاك والبشر ينطـق بـه وجهـه قبـل لســانــه والابتســامـة لاتفـارق تقـاطيع وجهـه ـ وبين ذلـك الرجـل المتزمت ـ العابس ـ المثقل بهموم الدنيا والمتصنع المقطب الحاجبين كان الدين قد اوصى بذلك، وحاشا الدين السمح ـ اليسر ـ ان يدعو الى ذلك او يأمر بذلك.

ولذا وجدت نفسي ملزماً ان اجعل الامثلة والقصص التي تحفتنا بها كتب التاريخ والسير، كيف كان يعيش الرسول الكريم ﷺ مع الصحابة ـ وكيف يتسامر ويتلاطف ويقبل النكتة البريئة والنادرة اللطيفة ويتعاطاها دون تزمت او احراج وكذا فعل بعده الصحابة والعلماء الصالحون المدركون لروح الاسلام ..

كان الرسول ﷺ يضحك حتى تبدو نواجذه. وروي عنه قوله: « **لاخير فيمن لايطرب ولا يُطرب** »[1] وكان يمزح مع اصحابه وافراد عائلته، ومن مزاح النبي ﷺ قوله لامرأة من الانصار: « **الحقي بزوجك ففي عينيه بياض، فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة، فقال لها: مادهاك؟**

فقالت: قال لي رسول الله ان في عينيك بياضاً!

فقال: ان في عيني بياضاً لا لسوء[2]

---

(١) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٦٧

(٢) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٦٧

وفي الاخبار ان النبي ﷺ كان يأخذ نفسه بشئ من المزاح.
ويروى عنه انه قال لامرأة عجوز، ذهبت تطلب منه ان يدعو لها بدخول الجنة.. فقال: «لا يدخل الجنة عجوز ، ولما انصرفت مولولة، ضحك عليه السلام وقال:-
الم تقرأي قول الله تعالى: « انا انشأناهن انشاءاً وجعلناهن ابكارا عرباً اترابا »[٣].
ويروى عن النبي ﷺ احاديث كثيرة فيها حث وتشجيع على الضحك والمرح والدعابة اللطيفة والنادرة البريئة. « الهوا والعبوا فاني اكره ان يرى في دينكم غلظة »[٤]
« روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فان القلوب اذا كلّت عميت »[٥]
« كل كريم طروب »

---

(٣) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٦٧
(٤) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦: ٣٧٩
(٥) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦: ٣٧٩

«دخل نعيمان الجنة ضاحكا لانه كان يضحكني»[٦].

وجاء في الحديث الصحيح ان امرأة جاءت الى الرسول ﷺ فاستحملته، اي طلبت اليه ان يجد ماتحمل عليه.

فقال لها الرسول الكريم: «انا حاملوك ان شاء الله تعالى على ولد الناقة: فجعلت تقول: يارسول الله ماصنع بولد الناقة؟

وهل يستطيع ان يحملني؟ وهو يبتسم ويقول: لااحملك الا عليه!

حتى قال لها اخيراً: وهل يلد الابل الا النوق!!؟[٧]

ومن الطرائف التي روتها كتب التاريخ واستساغها الرسول الكريم ﷺ وضحك عليها: انه خرج نعيمان وسويبط بن عبد العزي مع ابي بكر رضي الله عنه في سفر خارج المدينة المنورة وكان قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين، وكان سويبط على الزاد فاستطعمه

---

(٦) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦: ٢٨١

(٧) ظافر القاسمي، الحياة الاجتماعية عند العرب، دار النفائس ص١٢٢ ١٢٢

نعيمان - فرفض سويبط وقال له: حتى يجيئ ابو بكر وفي هذه الاثناء مر ركب من نجران. وابو بكر خارج جماعته فباع نعيمان سويبط على انه عبد بعشرة قلائص وقال:

انه ذو لسان دلفة ولعله يقول:

انا حر - اتركوني!

فقالوا: لا عليك

فوضعوا عمامته في عنقه وذهبوا به فاخبر بذلك ابو بكر - فرد القلائص وخلصه.

وضحك رسول الله ﷺ واصحابه سنة[8]

ومما يروى عن نعيمان ومقالبه. ان نعيمان هذا رأى مع اعرابي عكة عسل فاشتراها منه دون ان يدفع ثمنها وجاء بها الى بيت عائشة في يومها.

وقال:

خذوها.

(٨) الزمخشري ربيع الابرار سليم النعيمي ص١٦٧

فتوهم رسول الله ﷺ انه اهداها لـه ومر نعيـان وترك الاعرابي على الباب فلما طال قعوده قال:

ياهؤلاء ردوها عليّ ان لم يحضر ثمنه.

فعلم الرسول الكريم ﷺ بالقصة فوزن الثمن وقال لنعيان:

ماحملك على مافعلت؟

قال:

رأيت رسول الله ﷺ يحب العسل ورأيت الاعرابي معه العكة!!

فضحك عليه السلام ولم يظهر له نكيدا[٩]

هـذه طرائف حـدثت في زمن الرسـول ﷺ بعضهـا مـع اصحابه واقرها وضحك عليها فترة طويلة من الزمن كما ضحك عليها المسلمون ولم ينه عنها وانما اقرها وشجعهـا وكـذلـك النـادرة اللطيفـة والمكيدة البريئـة التي احـدثهـا نعيـان مع الرسول.. فـاقرهـا الرسول ودفع ثمن العسل ولم يغضب على نعيـان وانمـا عـاتبـه وسـألـه بلطف وطرافة واستفسر عما دفعه الى اتيانها .

---

(٩) الزمخشري ربيع الابرار سليم النعيمي ص١٦٧

وذكر نعيمان وهو يدعو، وكان اولع الناس بالمزاح عند رسول الله وانه يكثر المزاح والضحك فقال:ـ

يدخل الجنة وهو يضحك(١٠)

هذه سنة سنها الرسول الكريم الذي يضّحك الناس بالنكات البريئة اللطيفة ـ يدخل الجنة وهو يضحك!!

وجاء عبد الرحمن بن عوف الى باب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) فوجده مستلقيا على مرفعة له رافعاً احدى رجليه على الاخرى منشداً بصوت عال:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال عمر:

ياابا محمد! انا اذا خلونا قلنا كما يقول الناس.

هذا هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) وماعرف عنه من صرامة في العدل، وجدّ في العمل والقول، وهيبة في الحكم وورع

---

(١٠) الزمخشري ربيع الابرار سليم النعيمي ص١٦٧

وتقوى، اذا ما خلى الى نفسه يقول كما يقول الناس ويختار من الشعر الغـزلي الرقيـق وهـو يردد ذلـك بصـوت مسمـوع غير هيـاب لان الانشراح والسعادة وقول الشعر الغزلي البرئ فيـه ترويح على النفس واحساس بالسعادة.

وقيل لسفيان الثوري:

المزاح هجنة فقال:

بل هو سنة لقول رسول الله ﷺ

اني لا مزح ولا اقول الا حقاً(١١)

وسئل النخعي!!

اكان اصحاب رسول الله يضحكون؟

قال:

نعم والايمان في قلوبهم امثال الجبال الرواسي.

وقـال الامـام علي بن ابي طـالب (رض) اجمو هـذه القلـوب

---

(١١) الزمخشري ربيع الابرار سليم النعيمي ص١٦٨

والتمسوا طرف الحكمة. فانها تمل كما تمل الابدان والنفس مؤثرة للهوى، اخذة بالهوينى، جانحة الى اللهو امارة بالسوء. مستوطئة للعجز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل فان أكرهتها انضبتها وان اهملتها ارديتها[١٢].

■\■\■\■

ودخل عبد الملك بن عمر عبد العزيز على ابيه عمر وهو ينام نومة الضحى فقال:-

ياأبتِ اتنام واصحاب الحوائج راكدون ببابك؟

قال يابني ان نفسي مطيتي، فأن انضبتها قطعتها ومن قطع المطي لم يبلغ الغاية[١٣].

---

(١٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦:٣٧٩

(١٣) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦:٣٧٩

وقال الفقيه ابو عمر احمد بن عبد ربه (رحمه الله) ونحن قائلون بما الفناه في كتابنا هذا من الفكاهات والملح التي هي نزهة النفس، وربيع القلب ومرتع السمع، ومجلب الراحة ومعدن السرور[١٤].

ومحمد بن عمران التيمي قاضي المدينة قال:

هذه الملح انما تعجب عقلاء الرجال.

وقول الاصمعي:

شهرت بالادب ونلت الملح.

ويقول علي بن الجهم الشاعر العربي:

ماحنت الكؤوس بالاوتار كحنها بالملح القصار[١٥].

ومن طرائف ابن عمر، انه قال لجاريته:

---

(١٤) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦:٣٧٩

(١٥) الزمخشري ربيع الابرار

خلقني خالق الخير، وخلقك خالق الشر، فبكت فقال لها:
لاعليك فان خالق الخير هو خالق الشر[١٦]

وقال المغيرة:
كنت كثير الضحك لم يقطعه عليَّ الا قتل زيد بن علي[١٧].

ولقى يحي عيسى عليهما السـلام فيبتسم عيسى في وجـه يحي

فقال:
مالي اراك لاهياً كأنك آمن؟
فقال عيسى:
مالي اراك عابسا كأنك قانط؟

فقال: لانبرح حتى ينزل علينا الوحي:
فاوحى الله عز وجل:

---

(١٦) الزمخشري ربيع الابرار
(١٧) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٧٣

احبكما اليّ الطلق البسام[١٨]

وعن عبدالله بن سالم، كان يقول:

ترك الضحك من العجب اعجب من الضحك من غير عجب[١٩].

وتقول العرب:

« فلان معرب في المفاوهة، مغرب في المفاكهة »

ومع هذا فان في الاحاديث النبوية، وامثال العرب كثيرا ماتحذر من الاسترسال بالضحك والسخرية بالآخرين والتهكم والتشفي.

فحديث النبي ﷺ: « ان الرجل يتكلم بكلمة يضحك بها جليسه يهوى بها ابعد من الثريا »

وكذا قول النبي: « المزاح استدراج من الشيطان واختراع من الهوى ».

وكتب عمر بن الخطاب (رض) الى عماله:

(١٨–١٩) الزمخشري ربيع الابرار تحقيق النعيمي ص١٦٧

« امنعوا الناس من المزاح فانه يذهب بالمروءة ويوغر الصدور.

وعن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه:

مامزح امرؤ مزحة الآ مج من عقله مجة[٢٠].

وعنه ايضا:

اياك ان تذكر من الكلام ماكان مضحكا وان حكيت ذلك عن غيرك.

وقال الحسن، ضحك المؤمن غفلة من قلبه، وعن النحري بن يحي:-

مارأيت الحسن ضاحكاً قط الآ مرة وماتبسم الآ اتبعها بعبرة.

وقال حكيم:

تجنب شؤم الهزل ونكد المزاح، فانما هما بابان اذا فتحا لم يغلقا الآ نكد وفحلان اذا لقحا لم ينتجا غير فقر.

وقال آخر:

(٢٠) المستطرق، ٢:٢٩٣

لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح[٢١]

وقال الاحنف:

كثرة الضحك تذهب الهيبة. وكثرة المزاح تذهب المروءة ومن لزم شيئا عرف به[٢٢]

وعبدالله يتحدث ببنيه:

اياكم والمزاح فانه يذهب البهاء واياكم والقهقهة فانها تذهب الهيبة والمصنف:

العجب ممن هو في سواء الجحيم كيف يضحك، ومن هو في بحبوحة الجنة وهو يبكي[٢٣].

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عماله:

امنعوا الناس من المزاح فانه حمقة تورث الضغينة وتذهب بالمروءة.

---

(٢١) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٦٧

(٢٢) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٦٩

(٢٣) الزمخشري ربيع الابرار جـ٤ ص١٧٣

وقال محمد بن سلامة بن ابي زرعة الدمشقي:

لا يؤنسك اتراني ضاحكاً كم ضحكة فيها عبوس كامن.

ونحن نذهب ان الضحك الذي حذر منه ونهى عنه هو الافراط في الضحك، والاستهزاء والاستخفاف بالناس والسخرية منهم، وفعلها سخر، وسخر منه وقال الله تعالى:
« سخر الله منهم » وقال تعالى **« ان تسخروا منا نسخر منكم كما تسخرون »**(٢٤)

وهنا جاء النهي من الباري عز وجل من السخرية من الآخرين والاستهزاء والاستهجال والاستخفاف، او التهكم على الآخرين، وهو ان نتصنع الجهل وعدم المعرفة والقصد بتأييد رأي خاطئ لاظهار خطأ القائل مع معرفة مسبقة بالجواب الصحيح، وهذا هو نوع الضحك المستهجن والذي جاء النهي عنه في القرآن الكريم واحاديث الرسول ﷺ واقوال الخلفاء الراشدين والحكماء، اما الدعابة، وهو المزاح البرئ والهزل اللطيف فانها محببة ومدعاة

(٢٤) هيفاء عكارى الرافعي، المورد-٢، ١٩٨٢، ص١٧،١٨،١٩

لانشراح النفس وتضفي على المجالس المتعة والحياة الاجتماعية المرحة، وجاء رأي المعتزلة بقولهم:

« وللضحك موضع وله مقدار، فالناس لم يصيبوا الضحك الاّ بقدر ولم يصيبوا المزح الاّ بقدر »[٢٥]

وقولهم على لسان الجاحظ!

« ونحن نعوذ بالله ان نجعل المزح في الجملة كالجدّ في الجملة، بل نزعم ان بعض المزاح خير من بعض الجدّ، وعامة الجد خير من عامة المزاح »

وهذا مالا يختلف عليه، فان اعطاء نفسك المزاح والضحك كما تعطي القدر من الملح فان اكثرت الملح افسدت الزاد وان اقللته افقدته طعمه، « ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة المتفتحة والحلي الجميل والبناء الجديد، كأنه يضحك »[٢٦].

(٢٥–٢٦) هيفاء عكارى الرافعي، المورد–٢، ١٩٨٢، ص١٧،١٨،١٩

وقال الله تعالى:

« وانه هو اضحك وابكى، وانه هو امات واحيي »

« فوضع عز شأنه الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت »[٢٧]

☆ ☆ ☆

وقد تكون الفكاهة من خصائص المجتمع المتحضر وقد تختلف نظرة العرب للضحك، ومافرضته عليهم حياتهم القاسية الجافة الصعبة وسط الصحراء، وحياتهم الزاخرة بالعمل المضني. ومن غزو وحروب وجفاف وشقاء وتنقل وراء الكلأ والعيش الصعب.

لم تترك لهم هذه الحياة القاسية مجالا للعيش والافراط في المزاح والضحك المبتذل، والاكثار من اللهو العابث وهكذا وردت في القرآن الكريم بعض الآيات الكريمة التي تنهى عن الضحك وربما كان المقصود منها الضحك المبتذل او الضحك الحاقد الذي تشفى منه

(٢٧) هيفاء عكارى الرافعي، المورد ص١٩

الآخرين والنيل من نقص عقلي او جسمي الم بهم والتعالي والترفع والكبرياء على الآخرين، اي ان هذا النوع من الضحك المنبوذ هو الذي يدخل تحت اطار السخرية والتهكم والازدراء..

« ان الله لايحب الفرحين »[٢٨]

« ولاتمشي في الارض مرحا »[٢٩]

كما رويت عن النبي ﷺ احاديث شريفة فيها تحذير وتنبيه عن الافراط في الضحك والاكثار من المزاح بحيث يذهب من هيبة الشخص ووقاره ويقلل من رزانته وشخصيته.

« اياك والمزاح فانه يذهب ببهاء المؤمن ويسقط مروءته ويجر غضبه »[٣٠]

---

(٢٨) سورة القصص، اي الفرحين، فرح اشد وبطر، لافرح نعمة الله فرح واطمئنان.

(٢٩) سورة الاسراء مرحا: التكبر والخيلاء

(٣٠) نهاية الارب ٤:٧٣

« اياك وكثرة الضحك فانها تميت القلب وتورث النسيان »[٣١]

وروى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز (رض) قوله:

« لايكون المزاح الاّ من سخف او بطر »

وعن النوري:

« عظموا العلم ولا تكثروا الضحك فتمجه القلوب وكثرة الضحك من الرعونة »

وعن كعب:

« ان الله يبغض الضحاك من غير عجب »

وقال سعيد بن العاص لابنه:

« اختصر في مزاحك فالافراط به يذهب البهاء ويجري عليك السفهاء وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين ».

فاننا نرى من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة والحكم البليغة على ألسِنَة الفقهاء والحكماء ان التحذير من كثرة الضحك

---

(٣١) المحاضرات ١:١٧٩

والمبالغة فيه وان يطغى الضحك على الرزانة والعقل والعلم وحالات الجدّ التي هي ميزة من ميزات العرب فرضتها عليهم الطبيعة القاسية لكنما الطرائف البليغة والنوادر السليمة والابتسام والمسامرة ومجالس الانس كانت تزخر بها كتب التاريخ والسير والتراث والادب والقصص.

وقال ابو اسحاق:

وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا، واذا مدحت العرب رجلاً قالوا:

هو ضحوك السن، بسام العشيات، هش الى الضيف.

واذا ذمته قالت: هو عبوس الوجه، جهم المحيا، كريه المنظر، حامض الوجنة، كأنما وجهه بالخل منضوح وكأنما اسعط خيشومه بالخردل »

والفكاهة هي المرح والمزاح والرجل الفكه هو الطيب النفس المزاح.

ويقول الجاحظ بهذا الخصوص:[٣٢]

« انها تبين حجة طريفة او تعرف حيلة لطيفة او استفادة من نادرة عجيبة »

اما ابو حيان التوحيدي فيرى انها ضرورة للنفس لان النفس تمل كما ان البدن يكل »[٣٣]

ويقول النويري صاحب «نهاية الارب» في تشجيعه للفكاهة والنادرة اللطيفة:

« ... فيه راحة للنفس اذا تعبت وكلّت، ونشاط للخواطر اذا سئمت وملت، لأن النفوس لاتستطيع ملازمة الاعمال بل ترتاح الى تنقل الاحوال، فاذا عاهدتها بالنوادر في بعض الاحيان، ولاطفتها بالفكاهات في احد الازمان عادت الى العمل الجد بنشطة جديدة وراحة في طلب العلوم الجديدة »[٣٤] في حين يذهب افلاطون بعيدا

---

(٣٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ـ٦:٣٧٦

(٣٣) الثقافة العربية، العدد/٨ السنة الثانية شباط ١٩٧٥.

(٣٤) نهاية الارب في فنون الادب مجلد ٤ ص١

عن ذلـك ويقـول بخلاف ذلـك ويظنهـا من خصـائص السـوقـة ومميزاتهم .

اما في وقتنا الحـاضر فـالـذين تنـاولوا هـذا الفن من الادب لقليلون، واقـل منهم من خـاض فلسفتهـا ونـاقش اعمـاقهـا النفسيـة والفسلجية، وكل مايكتب هنا وهناك على صفحات المجلات والجرائد اليوميـة او الاسبوعيـة، وان ظهرت بعض الكتب والـدراسـات بهـذا الخصوص لاتتجاوز اصابع اليد.

وتنـاول العقـاد في احـد كتبـه فلسفـة الضحـك وهو الـذي يقول:

« ان المضحكات ليست بـالقليلـة ولكن الـذين يحسنـون صنـاعـة الضحك قليلون »

وقال الشاعر بيرون:

« انني اضحك لكي لاابـكي »

في حين ذهب الفلاسفة والادباء في التاريخ العربي الى ابعـد من ذلـك واعمـق ووصفـوا انـواع الضحـك وقسم العرب الفكاهـة الى

اقسام واوردوها في مؤلفاتهم موزعة شتى يدخل بعضها في باب الغباء والبلادة او في مجال التناقض او اللعب بالالفاظ او التهكم بالعيوب الجسدية او التهكم بالنفس او المداعبة، وتحتاج الفكاهة الى فطنة وذكاء ودقة الحس ورفعة في الذوق والشعور وحضور البديهة وسرعة الجواب.

ولم يكتفوا بذلك بل ربطوا بين انواع الفكاهة وانواع الضحك وكيف يعبر الضاحك عن فرحه ولذته وسعادته وماتنطوي عليه نفسه من شخصية مخفية ونوازع مدفونة، ويصفون اخلاق الشخص غير الظاهرة وغير المكتشفة من اسلوب ضحكة او طريقة ابتسامة.

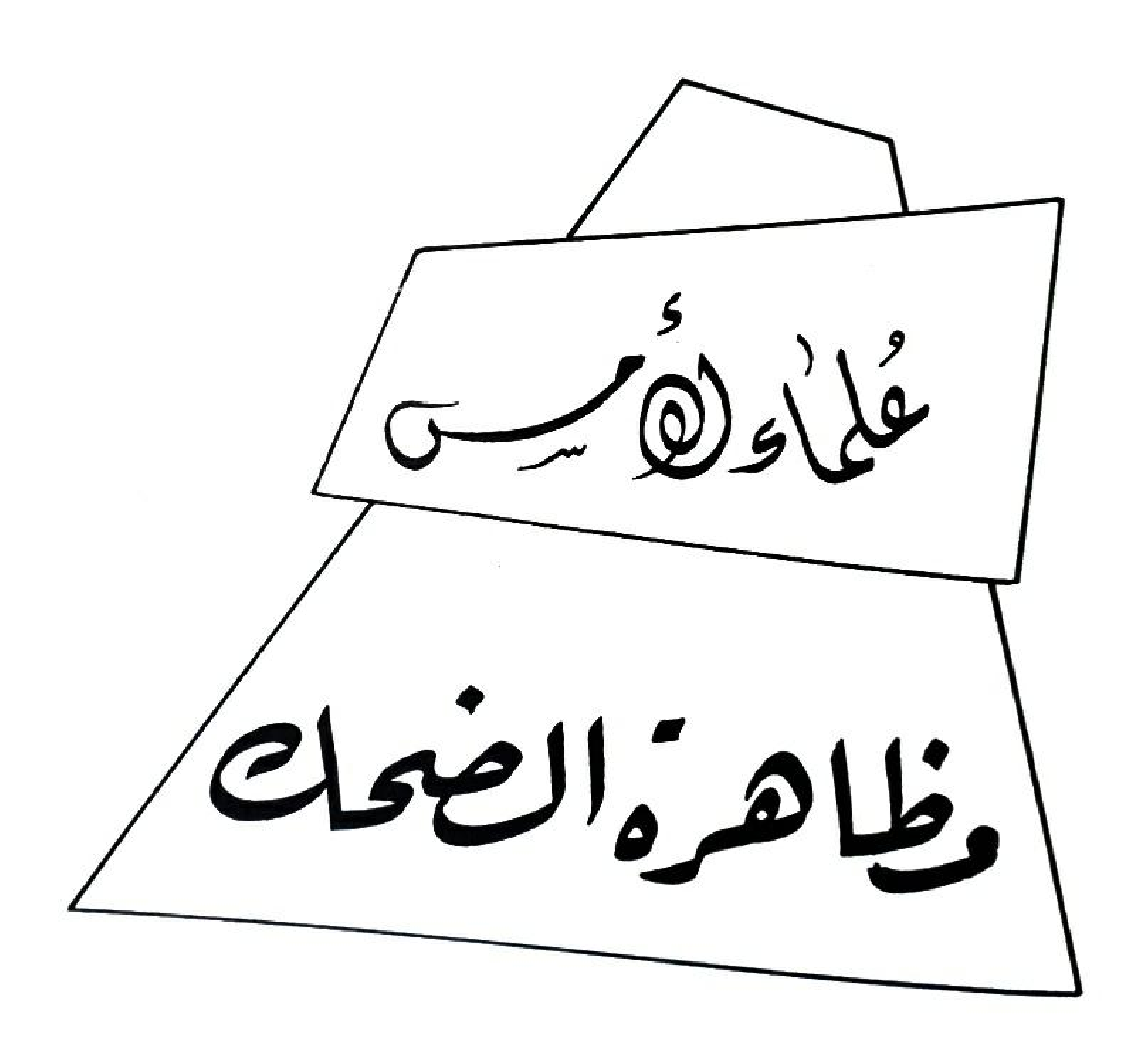
وقد جاء في مخطوطة لم تنشر ـ موسومة ـ «الطب النبوي» لمؤلف مجهول وجاء في احد فصولها بعلم الفراسة وفيها وصف لاخلاق الشخص من طريقة الضحكة والتبسم والقهقهة:ـ « من كان اذا

ضحك يطبق عينيه او عينه فهو مكار خبيث، من كان اذا ضحك ضرب بيده على الاخرى او على ركبتيه فهو ضعيف العقل حسود شحيح، من كان اذا ضحك اخذه الربو فهو جاهل متكبر، من كان اشد ضحكه تبسما فهو رزين العقل، من كان اذا ضحك غلب عليه الصياح فهو مهذار، من كان اذا ضحك تدمع عيناه فهو مهذار سبق، من كان اذا ضحك بكى ويغمى عليه من نفسه فهو ناقص العقل حزار »(٣٥).

هكذا يستدل الاطباء والفلاسفة العرب على صفات الناس واخلاقهم من اسلوب كلامهم، واستجاباتهم للانفعالات الظاهرة واهمها الضحك حيث ينطلق الشخص على سجيته ويظهر على حقيقته اي ان تنكشف الغلالة التي تحجب ظاهره عما يخفي من صفات واخلاق وانفعالات.

☆ ☆ ☆

(٣٥) مخطوطة لم تنشر/ سأعني بتحقيقها ان شاء الله.


علماء الأمس
وظاهرة الضحك

علماء الامس ـ وظاهرة الضحك !

منذ فجر التاريخ ـ حاول الانسان الاول مراقبة الطبيعة المحيطة به والظواهر المختلفة التي تكتنف حياته، حاول جاهدا ان يراقب ويفسر ويعلل تلك الظواهر المختلفة التي تؤثر في حياته. لماذا يمرض؟ ولماذا يموت؟ وكيف يشفى؟ وماهي المؤثرات الخارجية والداخلية التي تؤثر في حياته ـ ولماذا يبكي وكيف تدمع عيناه بالالم والحزن وحتى الفرح، وكذا لاحظ ظاهرة الرضا والسعادة والانشراح والابتسام والضحك :

وقد حاول الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والادباء ، الكتابة عن الضحك وعن الابتسامة والسخرية والنادرة واللطيفة والتهكم...

فسقراط العالم والفيلسوف الاغريقي يركز على اثر السخرية في الادب والبلاغة.. في حين ذهب افلاطون الى تفسير ظاهرة الضحك لانه من نوع النزعة اللااخلاقية وايده في ذلك ارسطوطاليس.

وحاول افلاطون الربط بين الضحك والالم ووضع علاقة بينهما وهو يقول:

« اننا نشعر بالسعادة ونحن نحك موضع الالم بالالم »[1]

الالم الذي يحدثه الحك ان كان شديدا ولكن تأثيره العلاجي انه يخفف وضع الالم، وهكذا اوجدت الشعور المختلط للالم والسعادة .

اما ارسطوطاليس فانه يقول: « ان الفرق المهم بين المأساة والهزلية بان الاخيرة تتعامل مع الصفات الاوطأ وان السخرية مشتقة من البشاعة »[2]

اما « كونتين » فانه يعطي اول محاولة ليفسر علاقة

(1) Psychlogy of Lauqhter p. 152

(2) Psychlogy of Lauqhter p. 153–154

الضحـك بتحليل علم النفس، و « دسكارت » اول كاتب فلسفي فسر الضحك بظـاهريتـه الفسلجيـة والنفسيـة، وقـد تكون نظريتـه هي السباقة كنظريـة حـديثـة ترتكز على علم النفس بـدلا من الادبيـات والغيبيات وربما كانت قريبة من التفسيرات الفسلجية الاكثر حداثـة عن ظـاهرة الضحـك. و « تومـاس هـوبـز » يضـع نظريـة الشعـور المفاجىء بالبهجة او انه يركز على المشاكل النفسية اكثر من اي كاتب سبقه.

و « جوزف ادبون » تناول في ابحـاثـه ظـاهرة الضحـك من الوجهة النفسية وركز في كتاباته على السخرية وكانت افكاره مؤيدة الى افكار « هوبز » القائل بان الانسان يضحـك لشعوره بـالرفعـة[٣] اما «عمـانوئيل كانت» فقـد اعتبر الضحـك وكـذا الموسيقى كاحسـاس بالابتهاج وهي من افكار اللعب الجمالية[٤]

---

(3) Psychlogy of Lauqhter p.166

(4) Psychlogy of Lauqhter p.174

ويؤكد « هيغل » بان كل تبـاين بين مـا هو مهم، ومظهره ـ الشخص وآلاتـه ـ او صـورة واطـارهـا اذا مـاحـدث بينهما تنـافر وتنـاقض قـد تكـون سـاخرة، ويضيف ان الضحـك هـو تعبير عن انتصار.. امـا « وليم هزلت » فقـد عـالج مشكلتي الضحـك والـدموع سوية بقوله:

« الرجل ـ هو الحيوان الوحيد الذي يضحك ويبكي »

و « دوفـالـد ستيوارت » يقول « ان الضحـك يخدم كـلا الحالتين، تحدث الانشراح وكذا نضبط اعصابنا »

امـا الفيلسـوف الالمـاني «شـوبنهـور » فـانـه يركـز على ان السخرية هي مزيج من الطرافة والحماقة:

« كل شئ ساخر فانه اما ومضة من طريفة او عمل احمق »

و « الكسندر بين » قد عـالج موضوع الضحـك تحت عنوان انفعال القوة ، ويذهب كما ذهب « هوبز » بانها « البهجة الطافحـة » وانهـا تعبر عن الانتصـار على العـدو، وان الضحـك ذو علاقـة وثيقـة بالسعادة المنبعثة عن الانتصار والتي تبعث السعادة العامة(٥) .

(5) Psychlogy of Lauqhter p.174

ان اغلب النظريات عن الضحك والتي يمكن ان توصف بانها بارعة وذكية ، فهي تعطي وصفا للسخرية ولكنها لم تتمكن ان تفسر لماذا تجلب تلك المواقف الضحك!

فـ « هربرت سبنسر» قد حاول ان يوضح بان الهبوط وعدم الانسجام يثير السخرية؟ وحاول ان يفسر الضحك بانه فائض طاقة في الجهاز العصبي وانها تنبع كشحنات على هيئة نوبات من الضحك وسنشير اليها في صفحات لاحقة «ص٥٦».

اما « شارلس داروين » فاعتبر الضحك تعبير عن البهجة والسعادة وقد لاحظها عند القردة بعد اطعامها اودغدغتها، وكذلك يعتقد بان سبب الضحك مبعثه الدهشة المثيرة. والشعور بالتفوق مدعاة للضحك مع اشتراط ان اطار الدماغ مهيأ للانشراح، وان كان الضحك بدايته تعبير عن السعادة فانه قد يكون غلالة لتغطية مشاعر اخرى كالغضب والخجل والحياء.

و « هارالد هوفدنك » قد اشار بان الضحك تعبير عن الاحساس بالسعادة، وقد يحدث لاسباب فيزيائية من غير تواجد

علامات الانفعال كما قد يحدث بعد التعرض للبرد الشديد والرجفة..

ويهاجم « جون ديوي » نظريـة « داروين » بـان الضحـك مجرد تعبير عن المسرة من غير ان يعطي تفسيرات واضحة محددة عن ظاهرة الضحك.

و « هنري برجسون » قد ابدى نظريته مبتدئا بـالاشـارة الى السخريـة يجب ان تكون انسـانيـة وان الحيوانـات والصـور الاخرى تبدو مضحكة بقدر مـاتـذكرنـا بـاشيـاء انسـانيـة، وان الضحـك هو ظاهرة اجتماعية بخصوصيته .

ويفسر «فرويد» عالم النفس النمساوي بـان الضحـك يحـدث بالتحرر من الطاقة النفسية الكامنة.

غير ان « وليم مكدوجال » قد رفض وجهات النظر القـائـلة بان الضحك تعبير عن السعادة، وهو يقول:

« قد يكون الموقف مدعاة للاسى ـ وانه يثير فينـا مشـاعر قـد تـدعو لعدم الضحك »

وانفرد «فاليه» قائلا:

« يرجع الفضل في تفسيرها ووضعها ضمن الغرائز الانسانية الهامة »

ويبدأ «كريكوري» بحثه بان هناك انواعا كثيرة من الضحك، ضحك النصر وضحك الاحتقار والازدراء والعار وقلة الاحترام والشعور بالزهو وضحك اللعب والتهاني والمسرة .(٦)

وقسم «جورجس ديوماس» الضحك الى خمسة جوانب منفصلة.

التشريحية، الفسلجية، وضحك الشعور بالانشراح، والسخرية والتفاعل الفيزيائي النفسي والاجتماعي.

وتذهب «مسز جونز» ان اكثر الاسباب مدعاة للضحك لدى الاطفال هي المداعبة والدغدغة، اما « دويريل » فقد ذهب الى ان الضحك هو نتاج ظاهرة اجتماعية مجردة.

و « لانج جيمس » جاء بنظريته القائلة:

« اذا كنا منشرحين سنضحك واننا منشرحون، لاننا نضحك »

ويقول « بن جونسون » بأن وظيفة الاحداث الضاحكة

---

(6) Psychlogy of Lauqhter p.213

تعيد توازن حماقة الانسان بجعلها ساخرة..!!

وربما «جان جاك روسو» الباحث الاجتماعي الوحيد الذي انكر بان يكون الضحك كواعز اجتماعي.

وبالنسبة الى «ادلر» فان عامل التعويض يلعب الجانب الاه وان جذوره ترقد في الاحساس العميق للشعور بالنقص.

اما « ايزنك » فانه يتخذ التقسيم الكلاسيكي للحالات الشعورية الى حالات ادراكية ووجدانية ونزوعية. هذه آراء وافكار سريعة متلاحقة لاغلب العلماء الذين حاولوا البحث في هذه الظاهرة الانسانية واعطاء تفسير علمي او فلسفي او نفسي، فالضحك ظاهرة انسانية قديمة رافقت الانسان منذ ان وطأت قدماه على كوكبنا هذا - واختلفت هذه الظاهرة من مجتمع لآخر - ومن ظرف الى ظرف ووقت لوقت وتمايزت الاسباب والنتائج ولكن تبقى ظاهرة الضحك هي واحدة وان تنوع اسلوب التعبير والاستجابة عند العلماء وتباينت وجهات نظرهم - وتقارب البعض وتباعد الآخرون - هذه الظاهرة المرافقة للانسان منذ طفولته وحتى

شيخوخته - ومنذ ان سار الانسان على كوكبنا وحتى نهاية الحياة - ومع وضوحها وبساطتها لكنها حيرت العلماء والمفكرين والفلاسفة والادباء .

ماأعجب الانسان واعقد اجهزته وخفاياه وماأعظم واكبر حكمة الباري عز وجل وقدرته حيث وضع هذه القدرة والحكمة في الانسان نفسه ويعجز الانسان نفسه مهما بلغت حنكته وتعمق ذكاؤه ان يفسر هذه الظواهر البسيطة الملازمة له طوال حياته ..


الضحك
مِن زاوية فلسفية

الضحك من زاوية فسلجية

الفسلجة والضحك

الضحك عند «سبنسر» ينشأ من تحول الاحساس فجأة من الاعصاب الى العضلات، فمن المقرر في النفسيات ان الاحساس اذا اشتد وضغط على الاعصاب تجاوزها الى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة او رقيقة على حسب قوته واشتداده، فاذا حبس الاحساس في طريقه فجأة تحول بغير ارادتنا من الاعصاب الى العضلات ويبدأ باسهل العضلات حركة واسرعها تأثيراً وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين فتتحرك بالابتسام او بالضحك او بالقهقهة او بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله.

لهذا نرانا نضحك في هذه الحالة اذا استبد بنا الغيظ والحزن كما نضحك اذا استحوذ علينا السرور والانشراح، الاول ضحك الهستيريا، والثاني ضحك المرح. او كما حدث واشرنا اليها ﷺ قد يبحث الارض برجليه او يفرك يديه او يضرب فخذه او من كان جالسا بجانبه، ولكل حركة دوافعها الفسلجية وتفسيراتها النفسية[1]

فنحن نضحك من الانقباض والالم، ونضحك الضحكة الهسترية التي يفرج بها المكروب عن اعصابه المكظومة فانما يخفف عنها بنقل شئ من ضغط الاحساس عليها الى العضلات. فالضحك هو الانتقال فجأة من الاحساس الى الحركة العضلية.

اي ان «سبنسر» الفيلسوف الانجليزي بنظريته هذه يفسر الضحك بأنه وسيلة للتخلص من الطاقات الفائضة عن الحاجة[2].

---

(١) صفاء خلوصي، الضحك، العربي، العدد ٣٤ ايلول ١٩٦١ ص١٠٠

(٢) نفس المصدر السابق.

ويذهب «سبنسر» الى ان هذه الطاقة العصبية والتي تعمل ضمن الجهاز العصبي تندفع خلال القنوات التالية:-

١- القنوات التي تقود الى الاعصاب الاخرى التي لاعلاقة مباشرة لها مع الجهاز الحركي.

٢- الاعصاب الحركية تؤدي الى نشاط العضلات

٣- اعصاب محفزة مؤدية الى الاحشاء الداخلية.

وقداشار في ابحاثه بان الضحك يحدث من مشاعر كثيرة ليس بالضرورة ان تكون جميعها سارة مثل الهستريا، والتهكم، والسخرية.. تبدأ عضلات الضحك بالتقلص، عضلات الفم، عضلات الكلام، لانها عضلات صغيرة سهلة التقلص وبعدها عضلات التنفس(٣).

ويؤكد «مكدوجال» على ان ثمة علاقة وثيقة بين الضحك والتعاطف او المشاركة الوجدانية، فقد اخترعت الطبيعة حيلة

(3) Wilhiam me Dougau, antoduction to Social psychology 1950 p80–1, 388–9

بايولوجية هي الضحك حتى تقينا ضد آثار الشفقة البالغة والتعاطف الزائد على الحد .

وقد وضع « وليم مكدوجال » السؤال التالي:

- ماذا يفعل الضحك لنا ؟

واجاب هو نفسه على السؤال:

- ان الضحك يخلق فينا حالة من النشوة ويمنع التفكير الكئيب.

وان ذلك يحدث لسببين فسلجي والآخر نفسي.

العامل الفسلجي هو الذي يبدأ عملية الضحك لتحضير التنفس والدوران ويرفع ضغط الدم وارسال تيار من الدم الى الرأس والدماغ، وهكذا نرى احتقان الوجه اثناء الضحك الشديد، والتأثير النفسي للضحك يبطل كل عمليات التفكير الاخرى وتبطل كل نشاط جسمي او ذهني.

والى العالم «فاليه» يرجع الفضل في تفسير ظاهرة الضحك باسلوب علمي ووضعها ضمن الغرائز الانسانية الهامة... وانها معقدة

التركيب ومشتركة بين جميع افراد النوع الانساني وبعض القردة[٤].

ولها مظاهر ثابتة اهمها تشنجات الحجاب الحاجز وبعض عضلات الجهاز التنفسي وسد اللهات من آن الى آخر بطريقة غير مسيطر عليها لتحدث ذلك الصوت المعروف بالضحك. وهو الذي يقول لاول مرة:

« ان ظاهرة الضحك موروثة وغير مكتسبة بالتعلم او التقليد او المحاكاة، ولها مراكز خاصة في الجهاز العصبي ودوافع ومحفزات خاصة بها ».

ويصحبها شعور باطني قوي يصعب ضبطه وقمعه ويزداد ظهوراً كلما حاولنا منعه، وللظاهرة انفعال وجداني خاص يمكن التعبير عنه بالسرور والانشراح »[٥]

وعدوى الضحك سريعة وشديدة الاثر عند سائر الناس حتى

(٤-٥) حامد عبد القادر ومحمد عطية الابراشي، ومحمد مظهر سعيد، علم النفس التربوي، دار الكتاب العربي للطباعة جـ١ ص١٤٤ ص١٤٥.

بين المتفرجين الذين لاتربطهم اي رابطة، وينسب للضحك الفوائد الآتية :

١- احداث تغيرات وتفاعلات بدنية، نفسية ودموية وافرازية تساعد على تجديد النشاط الحيوي وتولد الشعور بالصحة وتزيل انقباض النفس..

٢- تغيير مجرى التفكير وتجديده بطريقة تمنع الملل والكآبة وتحدث الراحة العقلية وقد يفعل الضحك فعل الدواء للمريض .

وفائدتها مزدوجة « فسلجية » و« نفسية »(٦) .

وقسم « جورجس ديوماس » الضحك الى خمس معضلات منفصلة:-

١- المعضلة التشريحية الفسلجية.

٢- معضلة الضحك كتعبير عن الشعور بالانشراح.

٣- معضلة طبيعة السخرية.

---

(٦) حامد عبد القادر ومحمد عطية الابراشي ومحمد مظهر سعيد جـ١ ص١٤٥

٤- معضلة التفاعل الفيزيائي النفسي.

٥- معضلة الضحك كظاهرة اجتماعية.

وعلى هذا «فمكدوجال» يؤكد ماسبق واشرنا اليه «ص٩٧» بان الضحك يحفز التنفس وجهاز الدوران ويرفع ضغط الدم، ويدفع تيارا من الدم الى الرأس، والدماغ وبناءاً عليه:

« فان الضحك الجيد يجعلنا جيدين » لان التأثير الفسلجي للضحك يحدث حالة من البهجة والانشراح.

لكن «مكدوجال» من خلال مناقشات متتابعة حاول ثبات، بان البهجة والالم تملك قدرة الحياة لتحدد الشهوة والكره.

ان الضحك والالم تفاعلان ممتدان من تكوين النوع الانساني.

ان البكاء والضحك ظاهرتان متشابهتان من نواحي عديدة - واحيانا ان دراسة ظاهرة البكاء تميط اللثام عن ظاهرة الضحك.

ان البكاء يحدث لدى جميع الاسوياء من الكائن البشري وهو غالبا مايرافق حالة الانزعاج والحزن والالم...

ومع هذا فقد يحدث البكاء لانفعال شديد في البهجة ومع صرعة من الضحك او تحفيز شديد على العين، ولكن يبقى في الاعم الشامل ان البكاء تعبير عن الحزن والانزعاج.

ومهما يكن من شئ، فان الضحك في نظر الكثير من الباحثين يشيرون في العادة بتأثير مجموعة من المؤثرات «او المنبهات» الفسلجية كالدغدغة.

كما انه يصاحب في الكثير من الاحياء ظاهرة من السرور والانشراح(٧).

حتى لقد ذهب بعض علماء النفس الى ان الضحك المتولد عن «الدغدغة» هي الصورة الاولية من صور الضحك ويربط البعض بين «مناطق الدغدغة» في الجسم ومناطق «التهيج الجنسي» فيقول انه ثمة عنصرا جنسيا اكيدا في ظاهرة الدغدغة(٨).

كانت محاولة الفيلسوف «هربرت سبنسر» ١٨٢٠-١٩٠٣م ان

---

(٧) زكريا ابراهيم، الدكتور، العربي، ٩٧ ص١١٣

(٨) نفس المصدر السابق ص١١٧

يعلل هذه الظاهرة فوضع نظريته عن «فائض الطاقة» التي اشرنا اليها حيث ذهب منها الى ان للسرور طابعا ديناميكيا يجعل منه طاقة زائدة لابد ان تلتمس لها بعض المنافذ، ويضيف «سبنسر» الى ذلك ان هذا الوجدان يمر عبر اعضاء النطق فلا يلبث ان يستحيل الى حركة ولكن ثمة طاقة اخرى من العضلات تأتي في ترتيبها بعد عضلات النطق مباشرة، لانها تنشط بفعل الانفعالات والعواطف وتلك هي عضلات التنافس.

ونظرا لما بين هاتين الطائفتين من العضلات من صلة عميقة او رابطة وثيقة فان الطاقة الفائضة التي تتولد عن حالة السرور او الانشراح لابد من ان تجد لها منفذا خلال تلك الظاهرة الصوتية النفسية التي نسميها الضحك(٩).

وقد عنى بعض الباحثين الآخرين ببيان وظيفة الضحك باعتباره وسيلة لاطلاق تلك الطاقة التي كانت قد عبأت لمواجهة موقف جدي او خطر ثم لن يلبث الخطر ان يزول على حين غرة،

---

(٩) نفس المصدر السابق ص١١٦

او لم يلبث الموقف نفسه، ان يتبدل فجأة. اما لاسباب خارجة واما لاننا انفسنا قد تحققنا من ان المسألة لم تكن من الخطورة بما هو واقع في ظننا وتحسبنا للامور.

او قد يجد في الضحك شيئا من التحرر الوقتي من اسر بعض مظاهر الكبت او الضغط الواقعين عليه بصفة شبه مستمرة كما في حالة النكات الموجهة ضد التقيدات الاجتماعية او القيود المفروضة نتيجة لبعض الظروف السياسية او الاقتصادية.

وقد يكون تحرر الطاقة وتفجرها ناتجا عن حالة سرور عامة او شعور غامر بالسعادة.

وماقرره «سبنسر» مثلا حينما ذهب الى عنصر «مفارقة» قد يتدخل فجأة في موقف ما من المواقف فيهبط به من مستوى رفيع الى مستوى آخر وضيع وعندئذ لاتلبث الطاقة المعبئة التي لم تعد لازمة لمواجهة الموقف الجديد الا ان تنطلق عن طريق الضحك(١٠).

(١٠) الدكتور زكريا ابراهيم، العربي ٩٧ ص١١٩

وفي وسعنا ان نميز بين ضروب مختلفة من الضحك تبعا لنوع الانفعال الذي ينطلق «او يتحرر» عن طريق الموقف الفكاهي، فانفعال الغضب والخصام يولد الفكاهات والنوادر التهكمية والدعايات المضللة والاشاعات الساخرة.

كما ان انفعال الخوف يعمل على ظهور الفكاهة المتهجمة التي لاتخلو من سمة حزن او عبوس والتي ينطبق عليها المثل الشعبي « شر البلية مايضحك » والشعور بالنقص يثير بعض النوادر الخفية التي تتسم بطابع الخجل والحياء.

والميول الجنسية تولد القهقهة المقترنة بالتعبيرات المكشوفة الفاضحة.

والتقزز يؤدي الى ظهور المجون والنكات البذيئة وهكذا فان الفكاهة تختلف فيما بينها حسب نوع الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها في حياتنا كافراد وجماعات .

وذهب «برجسون» « بان الضحك ظاهرة اجتماعية بخصوصيته » «ص٩٧»

ويذهب بعض الفلاسفة وعلماء النفس الى التركيز على ما للدغدغة من اهمية كبيرة في تفسير عملية الضحك وبخاصة من الناحية الفسلجية.

ولاشك في ان الاستجابة الشديدة التي تتمتع بها بعض مناطق خاصة من الجسم يكون في استثارتها مايولّد الضحك، وهذا مايؤكد على ان لظاهرة الدغدغة طابعاً فسلجياً اكيداً.

واذا ابطلنا حساسية تلك المناطق المرهفة الحساسية والاستجابة بتخدير موضعي، او كما يحدث في الطبيعة لدى الناس الذي يسيرون حفاة لفترة طويلة، فاننا نرى ان ظاهرة الدغدغة تكون معدومة في تلك المناطق في اثارة الضحك.

والملاحظ ايضا ان لابد من انِ يقوم بعملية الدغدغة شخص آخر حتى ينفجر المرء ضاحكا، مما يشهد بوجود عنصر نفسي في صميم هذه الظاهرة، وكذا يدل على وجود ظاهرة اجتماعية في صلب الموضوع .

ويذهب فلاسفة آخرون وعلماء نفس الى ان الدغدغة تمثل ضربا من العدوان في صورة دعابة اي انها صراع يتخذ شكل اللهو او اللعب، كما يدفع بالشخص الذي يقع تحت تأثيرها الى ان يستجيب بالضحك على سبيل الدفاع عن نفسه ضد هذا الموقف العدواني المزاجي.

وحينما يتحول المزاح الى جد والمداعبة الى هجوم جدّي فسرعان ماينقطع الضحك، لكي يحل محله تعبير الخوف والغضب والزجرة، ونلاحظ ان ازدياد قوة الدغدغة تزيد من قوة الضحك وسرعان ماتدمع العينان وقد ينقلب الضحك فجأة الى غضب وحنق كما سجلت حالات موت حاد، او انفجار الاوعية الدموية في الدماغ مسببة الشلل الفجائي او الوفاة.

وقد لاحظ عالم النفس الفيلسوف « مكدوجال » ذلك حينما قال:

« ان الضحك يرفع من ضغط الدم فيرسل الى الرأس والمخ سيلا دافقا من الدم، كما يدلنا على ذلك احمرار وجه الشخص الطروب الذي يضحك من اعماق قلبه ».

ويذهب بعض علماء النفس الى ان الربط وايجاد الصلة بين الضحك المتولد من الدغدغة وهو الصورة الاولية من صور الضحك، وبين «مناطق الدغدغة» في الجسم وبين مناطق «التهيج الجنسي» ويؤكدون بان هناك عنصرا جنسيا اكيدا في ظاهرة الدغدغة، ويذهبون الى ان في ظاهرة الدغدغة عنصر لهو ولعب' وهذا ماأكده «فرويد» حينما قال:

« ان المواقف الفكاهية مثلها في ذلك كمثل حالة اللهو واللعب تقوم دائما على «مبدأ اللذة» ولا اجد نفسي في الموضع الذي استطيع التطاول مع هؤلاء الفلاسفة الذين اعطوا آرائهم عن خبرة وتجربة وعلم اشبعوه بحثا وتمحيصا، ولكن قد اجيز لنفسي ان اعطي رأيا متواضعا بعدم موافقة بعض الآراء التي تقول بأن في الضحك نوعا من الاختراع ابتكرته الطبيعة لتعويض مايتسبب عن انتصاب قامة الانسان ومايسببه ذلك من نقص في درجة الاحتكاك والتدليل للاعضاء التناسلية.

واقول: ولماذا لايكون فيه نوع من الزهو والغرور والتسامي

الـذي شعر بـه الانسـان في انتصـاب قـامتـه وتعـاليـه على بقيـة الحيوانات .

ان الفكاهة والضحك والمرح افضل جو يكون فيـه الانسـان على سجيتـه الاولى، فـلا تكلف ولا تصنّـع ولا ازدواجيـة في الشخصية(١١).

وكان يستدل قديما على الصحة من السمنة وهكذا قيل:
« .. اضحك فتسمن » والمقصود بهذا القول:
« اضحك فتصح ».
وغـدا واضحـا ومسلّما بـه ان الضحـك والشعـور بـالغبطـة والفرح والسعادة تسـارع في التماثل للشفـاء من الامراض.. وبخـاصـة الامراض النفسية والقلبية، والجهاز الهضمي وامراض المفاصل وامراض الجهاز التنفسي وضغط الدم.

فـالضحـك هبـة الله للطبيعـة البشريـة لانعـاش الاعضـاء

(١١) العقد الفريد ٢: ٤٧٢، ١٨٣٠٦، محاضرات الادباء ١: ٢٥٦

واسترخائها وفيه حركة آلية لتدليك الكثير من الاعضاء.. وبخاصة الحجاب الحاجز الذي يؤثر على الرئتين.. على دخول الهواء وخروجه بسرعة.. وبصورة اعمق الى الحجيرات « الحويصلات » الهوائية والتي لا يصلها الهواء في التنفس الاعتيادي...

ويعمل الحجاب الحاجز بواسطة الضحك على تدليك الكبد والمعدة والامعاء.. ويساعد من خلال هذه الاعضاء على تنشيط عمليتي الافراغ والافراز في المعدة والامعاء والكبد.

وبهذا نجد للعاملين الآلي والنفسي اللذين يرافقان عملية الضحك اكبر الاثر في انعاش الجسم وبعض نشاطه... وقد يأتي ذلك من التأثير على الغدد الصماء فيزيد من نشاطها وافرازاتها..

والغدد الصماء بمجموعها تقوم بدور رئيسي في حياة الانسان وصحته مثل غدة البنكرياس والكظرية والدرقية النخامية..

كما تؤثر عليها وبصورة معكوسة حالات الكآبة والقلق والحزن والتعاسة والخوف والغضب، انها حالة من حالات التوازن للذات ـ خلق الله الحزن والغضب والتعاسة وقابلها بالسعادة والفرح والانشراح والضحك.

وعلى هذا يعتبر الابتسام والضحك عناصر اساسية في حيوية الانسان وصحته وحياته: وقال البعض:

« ان الانسان الحزين هو مشروع انسان فقط وليس انسانا كاملا، اما الانسان الناضج الذي يفهم بعمق فهو الذي يبتسم ويفرح »[١٢].

واذا كان الحزن والاسى دليلان على عمق المعرفة والمشاركة الوجدانية لهموم الآخرين ومقاسمتهم آلامهم واحزانهم، فالفرح والابتسام والضحك هي فهم لتلك المشاعر وتأكيد على احتمال الحياة بشموخ وابتسام.

عندما يبتسم الحزين ويضحك يقول لنفسه وللحياة انا طرف في المأساة، ولكنني قررت ان احتمل وان استمر في السير مع كامل اوراقي.. بالرغم من ان الشوك يملأ الطريق..

وقد قال بيرون الشاعر:

« ماضحكت على مشهد بشرى زائل الا وكان ضحكي بديلا استعين به على البكاء »

---

(١٢) رجاء نقاش، الحب لايتكلم ابدا، ٤٦، ٤٧، ٤٨.

فكلما اشتد به الحزن قاده احساسه الجميل العميق الى الضحك والابتسام.. انه لم يشأ ان يعبر عن حزنه تعبيرا سطحيا ليدل على الانهيار والضعف فقد لايكون اكثر ضعفا وسطحية من الدموع والاستسلام للكآبة(١٣).

والضحك ظاهرة نفسية تنسي متاعب الحياة اليومية وتتجاوزها مخففة من الاجهاد والتعب العصبي ولها وظائف ايجابية في العلاج النفسي وفي الشفاء من بعض الآلام النفسية والعصبية.. وفي سبيل تحمل عاديات الزمن ومصائب الدهر وكوارث الحياة.

ويرافق الضحك تفاعلات فسلجية داخلية في الخلايا العصبية والغدد الصماء يعقبها وكنتيجة لها تقلص بعض العضلات الشارحة كعضلات العينين حيث يبدو الضاحك احيانا وقد دمعت عيناه، ويتدفق الدم الى الوجه والرأس وتتحد عضلات اخرى في الجسم، يتمايل الجسم طربا او تصفق اليدان بحركة لاارادية، او كذا قد تكون حركة القدمين، ثم ان عضلات داخلية عديدة تنقبض

(١٤) نفس المصدر السابق.

ويزداد افراز بعض الغدد، ويظهر الانسان على حقيقته دون تمثيل او تكليف او تقيد من شئ حتى تختفي تلك الغلالة التي تحيط ظاهر الانسان فيظهر على حقيقته بعد ان تجرده من تلك الملابس التي يحاول ان يخفي داخلها شخصيته ونواياه، وتزيل عنه المساحيق والتزويق التي طلى بها شخصيته عبر مسيرته في الحياة ويظهر على واقع شخصيته ومدى عمقه ومستواه الفكري ومدى نزعاته ونواياه.




١١٢


الضحك
من وجهة نظر علم النفس

الضحك من وجهة نظر علم النفس

يحتاج الانسان الى الراحة الجسدية والنفسية وبخاصة في حياتنا الحاضرة حيث تشابكت سبل الحياة وتعقدت وغدت المزعجات والمنغصات تأخذ بتلابيب الناس في الدائرة، في المصنع، في المدرسة، في العيادة، في البيت.

وكان الناس حتى عهد قريب يجدون صفاء الذهن بالبساطة التي يحيونها، اما الآن فأن المزعجات والمجلبة لوجع الرأس اكثر من ان تحصى.. وهي تلاقيه اينما اتجه وذهب.

كان في الماضي تعيد اليه صفاء الذهن مسيرة على القدمين على ضفاف نهر دجلة، او دردشة مع الاصدقاء في ركنٍ هادئٍ من المقهى تعيد اليه توازنه، وقيادة سيارة خارج بغداد بين المزارع

بالرغم مما قد يلازمها من اسراب البعوض وغيوم الغبار، هي خير نزهة لذلك اليوم.

اما الآن فغدت مزعجة بحد ذاتها لما يلاقيه قائد السيارة من مطبات غير متوقعة تستهلك فقراته قبل اوانها، و«تفلفل» براغي السيارة وعليه ان يضع في اذنيه القطن ليتجنب اصوات المنبهات للسيارات الاخرى، ويتحلى بصبر ايوب ليضبط اعصابه من اثارة مخالفات الناس بالقيادة واستهتار بعض الشباب بعدم التزام باب قواعد المرور، وعليه ان يحول سيارته الى مجمدة، لتحفظ برودة الاعصاب.

وهكذا تغدو النزهة، نقمة ويرجع الى داره متوتر الاعصاب، ان لم يذهب الى اقرب عيادة للطب النفسي.

واذا قدر له ان يصل داره سالم الاعصاب هادئ الخواطر، فربما فاجأته سيدة البيت بقائمة من معضلات الاطفال والمدرسة وورقة الكهرباء، والهاتف الصامت ابد الدهر او الناطق الصامت، حيث يرن جرس الهاتف وعندما يرفع السماعة لامن مجيب او ان يسمع المرء اجابات حمقاء..

كل هذا في وقتنا وزماننا الحاضر وحضارتنا المزدهرة.

وعلينـا ان نرضخ لـلامر الـواقـع، ونرتفـع فـوق كل هــذه المنغصات ونرسلها ابتسامة هـادئـة سـاخرة من كل هـذه الاحـداث، حتى نحفظ توازننا العقلي، وهدوء انفسنـا او نرسلهـا ضحكـة عـاليـة مجلجلة.

فالضحك هو ضرب من المناعة النفسية التي تحول بيننا وبين التأثر بما يعرض لنا في هذه الحياة من ضغوط وماكثرها!!

وعلى هذا قد يكون الضحك استجابـة للالم لا للسرور نظراً لان مفتاحه هو المواقف التي تسبب لنـا الضيق او الكرب او الالم ان لم نضحك[1] .

ولابد من التفرقة بين الابتسام والضحك لان الاولى منها رد فعل للسرور بينما الثاني رد فعل للالم.

فهذا « شارلي شابلن » المثل الهزلي يقول:

« ان النـاس يتعـاطفـون معي بحق حينمـا يضحكـون لانـه بمجرد

---

(١) زكريا ابراهيم، الهلال، اغسطس ١٩٦٦ ص٤

مايزيد الطابع التراجيدي على الحد فانه سرعان مايصبح الموقف باعثا على الضحك ».

اما « والت ديزني » كاتب قصص الاطفال فيقول:

« ان الناس كثيرا مايتعاطفون حينما يضحكون، ولما كان الاطفال قد يتعاطفون بشكل زائد على الحد، فانهم يجدون انفسهم مضطرين ان يغلقوا عيونهم حينما يكونون بازاء بعض المواقف المروعة »[٢].

وكثيراً ماينفجر الانسان ضاحكا وهو يواجه مواقف الخوف والهلع والقلق، مما يكشف عن اهمية كل من العوامل الداخلية والخارجية في امثال هذه المواقف، وحينما يضحك الانسان لمواجهة المواقف الخطرة التي يتعرض لها، فانه بلا شك انما يحاول عن طريق الضحك ان يرفع من روحه المعنوية او ان يعمل على تقوية شجاعته[٣].

---

(٢) نفس المصدر السابق ص٦

(٣) نفس المصدر السابق ص٨

ولذا نرى الخلفاء والقادة والسلاطين عندما تلم بهم الشدائد والمواقف الصعبة فأنهم يلجأون الى وسائل الانس والطرب وندمائهم لتسليتهم وراحتهم واضحاكهم وان بدا في ذلك نوع من التهرب عن المواقف الصعبة، وانما يحمل في طياته وثناياه نوعا من ترويح النفس واعطاء فترة راحة لخلايا الدماغ لتفرغ شحنتها المتوترة.

فاذا مارجعوا الى مواقف الجدّ ومواجهة الاخطار وجدوا انفسهم اكثر قوة وارفع معنويات واقدر على قدح زناد التفكير واتخاذ القرار.

فالضحك والابتسام والاسترخاء بعث فيهم القدرة على التفكير السليم ومجابهة الاخطار والمشاكل المعقدة بذهن صافٍ وروحية عالية.

وقد نجد المنظر الواحد والمشهد نفسه الذي اثار الحزن والبكاء لدى بعض الناس قد اثار الضحك والسخرية لدى الطرف الآخر، وتكون هذه الظاهرة اكثر وضوحا لدى الاطفال حيث لاتوجد تلك الغلالة الشفافة من النفاق الاجتماعي التي تحجب الانسان من ان يتصرف على سجيته.

انها اشبه بلعبة كرة القدم حيث تعم الفرحة والضحك والزغاريد للفريق الفائز وانصاره ومشجعيه في الوقت الذي تعم الحسرة والالم اعضاء الفريق الآخر ومشجعيه ومدربيه. وهذا امتداد للانسان المتوحش الاول الذي يكشر انيابه مزهواً وهو يمزق احشاء فريسته وقد تتساقط دموع الفرح وهو يعبث باشلاء تلك الفريسة ليوزعها على زوجاته واطفاله، ومن ناحية اخرى تتساقط دموع الالم من تلك الفريسة الضعيفة المسكينة .. او ان دموع اطفال الفريسة ذاتها وعائلته تذوق دموع الحسرة والجوع وهي تنتظر عودة الاب الذي وقع ضحية القوة والوحشية والاغتيال..

انها الدموع وهي نفس الدموع وان كانت بحاجة الى تحليل كيميائي علمي دقيق لترى فيما اذا كان هناك تباين واختلاف بين دموع الفرح ودموع الحزن!!

وهناك اسباب كثيرة لتباين وجهات النظر الفلسفية النفسية والفسلجية في معرفة كنه الضحك.

١- ان المعضلة من التعقيد والغموض لانها حالة متعلقة بذلك

الصندوق المقفل داخل جمجمة الانسان ومـا ينطوي داخلـه من تفـاعل وانفعـال لاتزال بعمومهـا يكتنفهـا الغموض والاجتهـاد لاكثر ظواهرها وماالضحك الآ احدى تلك الحالات الغامضة.

٢- تنـوع المسببـات التي تجعـل الانسـان يضحـك ويبتسم ويعيش ويبكي.

٣- تباين استجابة الاشخـاص بنوع الضحـك لنفس المحفز الواحـد، وغالبها تعتمد على استجابة الانسان وتختلف من شخص لآخر.

٤- ان استجابـة الشخص الواحـد لنفس الظـاهرة تختلف من وقت لآخر ولذا يصعب التحكم بها وقياسهـا كما نفعل بضربـات القلب او النبض او ضغط الدم او التفاعلات الاخرى.

٥- ان اغلب الدارسين بحثوها من زوايـا ووجهـات نظر منفصلـة، فعلماء النفس ينظرونها كظاهرة نفسيـة صرفـة وعلمـاء الاجتماع كظاهرة اجتماعيـة وعلمـاء الفسلجـة من التفـاعلات الفسلجيـة. والادباء والفلاسفة يفلسفون الظاهرة، ولـذا فلا بـد من تواجـد مدرسة محايدة ندرسها ونتعمق في بحث جوانبها المختلفة النفسية الفسلجية والاجتماعية والفلسفية.

« فكدوجال » قد كتب كثيرا في نقض آراء غيره «ان اغلب الكتاب عن الضحك افترضوا من غير ان يتساءلوا، لماذا؟ بأن الابتسامة مشابهة للضحك.. او انها جزء منها او مكملة لها.. وانا اقترح ان ذلك خطأ.. لان الابتسامة تعبير عن الرضا.. انها قناعة عن نجاح متوقع - ان عذوبة الابتسامة - ابتسامة النصر - ولكنها ليست الضحك.. الام تبتسم وهي تداعب طفلها وتدغدغه - الابتسامة لطيفة - والضحك بشع اذا ماانطوى على التشفي والسخرية!

وبتساؤله مرة اخرى هو ذاته:

- ولماذا اذن ينتهي الضحك غالبا بابتسامة؟

والجواب لدى مكدوجال.. ان الضحك دائما كأي نشاط ناجح يجلب الرضا والذي يعبر عنه بعدئذ بالابتسام.

ان الابتسام الذي يحدثه الضحك هو المعبر عن رضا وقناعة(٤).

---

(4) RAIF PADDINGTON, PSYCHOLOGY OF LAUGHTER, 18 ADAMST. LONDON W.C. 1933

وليس من الضروري ان ينتهي الضحك بـالابتسـام وانمـا في رأي «مكدوجال» يبدأ غالبا بالابتسام..

امـا «دارون» فقـد حـاول جاهـداً ليثبت بـان الابتسـامـة والضحـك كليهما تعبير عن السعـادة. ويخـالفـه علمـاء النفس حيث يـذهب بهم الاصرار الى ان الابتسـام وليس الضحـك الصـاخب هـو التعبير عن السعادة، والضحك قـد يحـدث من مواقف قـد تكون غير مسرة كالسخرية والتهكم.

ويـذهب علمـاء النفس وبـاصرار لنفي كل النظريـات الفلسفية التي حاولت ان تعلل ظاهرة الضحك وقالوا انها بـاطلـة!! بعد ان كشف العلامة «مكدوجال» الغطـاء عن حقيقتهـا، وهو عـالم نفسي:

ويختلف النـاس بـالاستجـابـة للنكتـة فمثلا نرى ان بعض الناس تستجيب بابتسامة هادئة لنكتة مـا، نرى الآخرين يضحكون عاليا لنفس النكتة.

وقـد لاحظت «مسز جـونـز» ان اكثر الاسبـاب مـدعـاة

للضحك لدى الاطفال هي:

١- مداعبة الاطفال ودغدغتهم.

٢- الركض والسباق مع الاطفال الآخرين.

٣- اللعب باللّعب.

٤- اثارة الغيرة لدى الاطفال الآخرين.

٥- تقليد اصوات الموسيقى واصوات الحيوانات.

بمثل هذه التجارب جعل الكثير من المفكرين ان يربطوا بين الظاهرتين وجلب الانتباه الى العلاقة الوثيقة بين الضحك واللعب.

ولابد من الاقرار بانه توجد علاقة بين الضحك واللعب وبخاصة عند الاطفال ومثال ذلك مانراه من ان الدغدغة ومداعبة الاطفال او قذفهم في الهواء تثير الكثير من الضحك.

وهذا مادرسه واكده «كريكوري» على ان لايكون اللعب قاسيا والدغدغة شديدة والاّ سببت دمع العين وربما تحولت الى تأثير مزعج ومغضب!

ويفسر آخرون الضحك بأنه مرتبط ارتباطا وثيقاً بظاهرة «الاسترخاء المفاجئ» التي يحدث فيها انتقال سريع من حالة الجد والتوتر الى حالة اللهو والانطلاق. ويتجه الرأي السائد بأن طبيعة الموقف الذي يؤدي الى الضحك ينطوي على عنصر «مفاجأة» او «عدم توقع».

حتى لقد ذهب بعض علماء النفس الى ان الضحك المتولد عن «الدغدغة» هو الصورة الاولية من صور الضحك ويربط البعض بين «مناطق الدغدغة»، في الجسم ومناطق «التهيج الجنسي» فيقول انه ثمة عنصرا جنسيا اكيدا في ظاهرة الدغدغة(٥).

وهذا مايؤكده علماء النفس فيما يتعلق بالميول الانفعالية الغريزية التي يتصل بها الضحك ويحصرونها في الخوف والجنس والعدوان والاحساس بالانتصار والتفوق.

---

(٥) زكريا ابراهيم، الدكتور، العربي ٩٧ ص١١٧

وفي المجال العقلي يذهب الباحثون الى ان الضحك كثيرا مايتولد عن المفارقات والجمع بين المواقف المتباينة والتأليف بين العناصر المتنافرة ووضع الشئ في غير موضعه.

اما «ايزنك Ezynuk» فأنه يتخذ التقسيم الكلاسيكي للحالات الشعورية الى حالات ادراكية ووجدانية ونزوعية وحاول ان يظهر مافي ظاهرتي الفكاهة والضحك من عناصر عقلية وعاطفية وارادية مع مراعاة التداخل القائم بين هذه العمليات النفسية الثلاث(٦).

وقد شرح «ايزنك» وبأسهاب مبينا كيف ان في وسعنا ان نصنف النظريات التقليدية في تفسير الضحك بحسب تأكيد اصحابها لاحد هذه الجوانب على حساب الجانبين الآخرين فقال: ان في وسعنا ان ندخل كلاً من الفلاسفة:

«لوك» و«كنت» و«شوبنهور» و«سبنسر» في عداد المفكرين الذين

---

(٦) نفس المصدر السابق ص١٢٠

حرصوا على تأكيد الجانب الادراكي في الضحك.

وتدخل كلاً من الفلاسفة «ديكارت» و«هارتلي» و«هوفتدج» و«مكدوجال» ضمن المفكرين الذين اهتموا بالجانب الوجداني على وجه الخصوص.

بينما يدخل كل من الفلاسفة «افلاطون» و«ارسطو» و«هوبز» و«هيجل» و«بين» و«برجسون» و«لودفشي» ضمن المفكرين الذين ضغطوا بشدة على الجانب النزوعي من هذه الظاهرة.

اما العالم النفساني النمساوي «فرويد» فأنه يؤكد هذه الجوانب الثلاثة معاً فهو يقسم الفكاهة الى انواع ثلاثة هي:

١- الكوميديا
٢- المزاح
٣- التفكّه

وهذه الانواع الثلاثة يقابلها على التعاقب:

١- الادراك
٢- الوجدان
٣- النزوع

وتكمن الصعوبة لدى الجميع في معرفة السبب الذي من اجله يعبر السرور عن نفسه بلغة الابتسام والضحك، وان وضعت في تفسير ذلك مختلف الفرضيات والآراء الفسلجية والنفسية لتفسير هذه الظاهرة.

واذا مابلغت السعادة في حدها الأعلى، نرى ان الابتسام الهادئ يتحول الى ضحك ومن ثم الى هياج يفقد السيطرة على مشاعرهم وقد يخرجون عن ادراكهم الواعي ويتصرفون تصرفات ساذجة، او يتحول الضحك والانفعال الى نحيب وبكاء ودموع ساخنة عندما تغمرهم السعادة الحادة غير المتوقعة.

وذهب «توماس هوبز» الى ان الاصل في الضحك هو شعورنا بالتفوق والامتياز، ومحاولة اظهار... الانا الاعظم، وكأننا نجلب الانتباه الى ضعف الآخرين لنكون بمنجى من سخرية وتندر الآخرين.

واكد هذه الحقيقة بعده «ليودوفتشي» فذهب الى ان في الضحك شيئا من الضرر او التشفي من الآخرين او قد يكون مجرد

«محاولة تعويض» يراد بها تغطية خوفنا من التعرض لحالة الضعف او الضعة او النقص او القصور، كما يحدث مثلا حينما نجد انفسنا في موقف يدعو الى السخرية فنضحك في سبيل الدفاع عن النفس.

وهذه الظاهرة واضحة جدا على مستوى المجتمعات والاشخاص والامثلة كثيرة ومتنوعة فعلى سبيل المثال لا الحصر لتوضيح هذه الظاهرة، شخص اصيب بمرض عقلي حاد افقده توازنه نبعض الوقت، كما اصيب بهذا المرض بعض افراد عائلته، وبعد شفائه من المرض غدا انسانا آخر سليط اللسان للنيل من الآخرين، ويعقد الحلقات الهازلة للنقد والبحث عن عيوب الآخرين وبخاصة من لهم علم بمرضه.

وماهذه الظاهرة الآ تأكيدا لتغطية النقص والضعة التي يشعر بها في قرارة نفسه بالرغم من مضي السنوات الطوال على مرضه، ولكنه احساسه الداخلي ينقصه وربما من غير شعور منه، يدفعه الى ثلب الآخرين والضحك والاستهزاء من مواقفهم حتى وان كانت صحيحة.

وذهب بعض الباحثين لايجاد نوع من التوازن والصلة بين التفوق والعدوان فقالوا: « اننا نكشف عن اسناننا لا لكي نعبر عن سرورنا او غبطتنا بل لكي نظهر بطريقة رمزية روح العداء والهجوم « ترجع بنا بلاشك الى آثار الوحشية القديمة ».

ولهذا ذهبوا الى القول بان للابتسامة طابعاً وجدانيا(٧) وظاهرة تخفي الحقد الدفين وروح الانتقام، وكما عبر عن ذلك الشاعر العربي:

وكم من اوجه تبدي ابتساما وفي طيّ ابتسامتها قطوب

وقد يكون في الضحك عنصر من الثأر الانساني والانتقام من المجتمع - الذي ظلمه - كما يعتقد، واذكر قصة اخرى لطبيب كان ضحية خلاف الاب والام وطلاق الاب للام وزواجه ثانية حتمت عليه حياة قاسية تحت ظل رحمة زوجة الاب ومشاكل الاخوة الصغار من الام، وتسلطهم عليه تحت حماية الاب والام معا،

(٧) نفس المصدر السابق ص١٢٠

ودفعته عقدة التخلص من هذا الامتهان لشخصه والانا ـ التي تثور بداخله ـ ان تقف نفسه بشكل كبير ولكنه فشل في توظيف ثقافته وعلمه من اجل خير الناس وتوجيه الآخرين وانما طغت عليه عقده الكامنة في داخله وذهب يتصيد اخطاء الآخرين والضحك والسخرية من كل الناس بما في ذلك ابيه وامه وزوجة ابيه وشخصه ويضحك ملْ شدقيه من مصائب ونكبات الآخرين.

وهذا مايفسر ضحك الانسان لما يلم بالآخرين من مصائب ونكبات تجلبها عليهم بعض القوى الطبيعية او العوامل غير الشخصية.

ويكون الضحك هذا ـ حسب تفسيره في داخله ـ ناتجا عن شعور او لاشعور بأن هذه المصائب هي جزاء حق لهم، وهنا يدخل عنصر الثأر والتشفي.

واذكر مثالا آخراً لزميل طبيب تسنم منصبا اداريا رفيعا ولكنه فشل فشلاً ذريعا في ادارة ذلك المرفق الحيوي المهم. وفُصِلَ وطُرِدَ من ذلك المنصب الاداري واذا به يتحول الى مشاكس وباحث

هزلي عن مقالب الآخرين وكل ماله علاقة بالادارة، ويجمع رسوم «كريكاتير» ونكات تخص الادارة، وكأنه بهذا التصرف والتندر والسخرية هو ارضاء لنفسه واشعار ذاته با لأنا الاعظم بهذه الرسوم والنكات والصور المتجمعة لديه.

وقد تكون وظيفة الضحك الاساسية تخفيف اعباء الواقع عن كواهلنا وتخليصنا الى حين من بعض تبعات الحياة الجدية والمشاكل اليومية والهموم التي تحاصرنا من كل جانب فنجد بالفكاهة والنكتة الطريفة تحرراً من هذا الواقع المغمم بالمآسي.

وعلى هذا ربما كانت اللذة الكبرى التي ينجدها المرء في الفكاهة والضحك تعود الى الجانب الاكبر منها الى هذا الشعور بالتحلل من الواقع عن طريق الهزل والدعاية.

فالفكاهة تسمح بضرب من الاسترخاء حتى تتخلص النفس من الضغط الثقيل الواقع عليها من واقع حياتنا او الوجود الخارجي، ومن هنا فالفكاهة غاية صحية باعتبارها وسيلة جيدة للتهرب من هموم الحياة المثقلة بالمشاكل والاعباء اليومية والمنغصات الوظيفية.

وهذا ماأثبته «لوس» سنة «١٩٥١» في دراسته لعلاقة روح الفكاهة ببعض التغيرات في الشخصية، اذ وضح له عن طريق التجارب العديدة، ان اولئك الذين يتمتعون بحس فكاهي يكون ترتيبهم متأخرا في سلم الاشخاص المعرضين للامراض النفسية.

مما يؤثر عن «فولتير» في هذا الصدد قوله:

« ان لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس انفسهم، فويل للفلاسفة الذين لايبسطون تجاعيدهم، لان العبوس في نظري مرض عضال ».

ولابد من التمييز بين حالات الخوف وحالات القلق واثرهما على الفكاهة، وقد اظهر «فرويد» في بحث نشر منه (١٩٢٨) استعان فيه بنظريته في دور «الانا الاعلى» واثرها في النكتة وماتلعبه من دور متسامي بالضحك والسخرية والفكاهة للتغلب على حالات القلق والضعف التي يمر بها الانسان، ومن ثم فانه قد يستطيع ان ينظر الى هموم الانا العادية ومشاغلها اليومية الطبيعية بشئ من التحرر الروائي المترفع.

ويضرب على ذلك بعض الامثلة الصارخة التي تظهر بوضوح دور الفكاهة والسخرية باظهار حالة الانا الاعظم.

« قصة ذلك المجرم الذي اقتيد الى غرفة الاعدام في صباح يوم الاثنين، وهو اول ايام الاسبوع في بلاد الغرب فابتدر منفذي حكم الاعدام بقوله:

«انها حقاً لبداية طيبة للاسبوع!»

وقصة اخرى تروى عن احد المحكوم عليهم بالاعدام، فقد سئل قبل تنفيذ الحكم عليه عما اذا كان لديه شئ يريد ان يقوله، فما كان منه الا ان اجاب بقوله:

« اجل.. قولوا للقاضي انه قد يكون احسن صنعا بما اصدره من حكم عليّ.، فربما يكون في الاعدام رغم كل شئ درسا وعبرة لي».

ففي هذه الحالات وفي غيرها من الامثلة، نجد ثمة افكارا وتوضيحا للحقيقة، او تجاهلا تاما لخطورة الموقف، وكأن كل شئ يسير كالمعتاد، او كأن ليس ثمة مايتهدد حياة المتكلم.

ولكن «فرويد» يلاحظ في تحليله لمثل هذه القصص الواقعية ان في «انكار الواقع» عن طريق الفكاهة ضربا من السمو

الاخلاقي الذي يرجع الى مايقوم به «الانا الاعلى» من تحدٍ للواقع، فكأن الانا توجه الحديث بالقول:

« اسمع ياصاح ان كل مايبدو لك عظيم الشأن وخطير لايخرج عن كونه العوبة طفل، اعني شيئا تافها لايستحق منك سوى الهزل والمزاح ».

وقد يكون «فرويد» محقا في قوله بان الفكاهة تؤدي دورا رئيسيا وهاما في صميم حياتنا النفسية.

لانها باستبعادها لامكانية الالم، تتخذ مكانها الى جوار غيرها من الطرق البشرية الفعالة التي ابتدعها عقل الانسان للتهرب من قسوة الالم، ونعني بها العصاب والهذاء والسكر والتجرد والوجد الصوفي..

وتتميز الفكاهة عن هذه الضروب المختلفة من طرق دفع الالم بانها تنطوي على عنصر اخلاقي يتمثل في كونها تحررنا من الكبت والقلق والخوف الذي يلم بنا وبذا ترفع من مستوانا النفسي، وهي

من ثم اداة فعالة للمحافظة على صحتنا النفسية(٨).

وهناك حالات اخرى تقوم فيها الفكاهة بدور انكار الواقع، او انها تمدنا والطريق السهل لانكار الواقع المؤلم، او قد تمدنا بروح التقبل او تطبعنا داخليا بدور الاستسلام لهذا الواقع ولكنها بنفس الوقت تنطوي على عنصر عدواني يتأتى بها عن ذلك النوع من الفكاهة الذي وصفه فرويد بأنه «عمل سمو اخلاقي» «آلية التسامي».

وهذه الحالات التي يتجه فيها الميل العدواني اما نحو الذات او نحو العالم الخارجي، لتدل دلالة واضحة على ان «الانا الاعظم» هنا اقل رحمة بالذات، واشد نزوعا نحو العدوان عليها، ومن ثم فانه يحاول ان يعاقب نفسه ويقتص من ذاته، او انه قد يكتشف نحو ادانة الآخرين واضطهادهم دون ادنى رحمة.

وان العدوان الذي تنطوي عليه امثال هذه النكات يتضمن

---

(٨) مجلة الهلال آب ص٩، ١٠، ١١

ضربا من النقد الذاتي المحض، بالاضافة لنقد الآخرين باعتبارهم موضوعات مبغضة تمتصها الذات.

ولا يقتصر العدوان في امثال هذه النكات على الخصوم البشرية وانما قد يتجه في بعض المناسبات نحو قوة اخرى غير بشرية(٩).

وهذا النوع من الضحك الهازل قسوة مختفية، تشاؤم مطلي ببريق الاسنان.. صوت يصدر من الفم ولاينبع من القلب، انه يتيح الفرصة للضاحك لان يتشفى من غيره، يضحك من العاجز، والمريض والطاعن في السن.. انه نوع من التشفي من الآخرين، وهذا النوع من الضحك والتندر والسخرية التي نهى عنها الله في كتابه، والرسول الكريم ﷺ، والصحابة، والحكماء والفلاسفة ..

لانها بعيدة عن الاحساس الانساني والادراك الاجتماعي...

ماذنب الذي الّم به مرض عصبي فجعله يطرف، او ان ترتجف عضلات خده هزات لاارادة له بها..

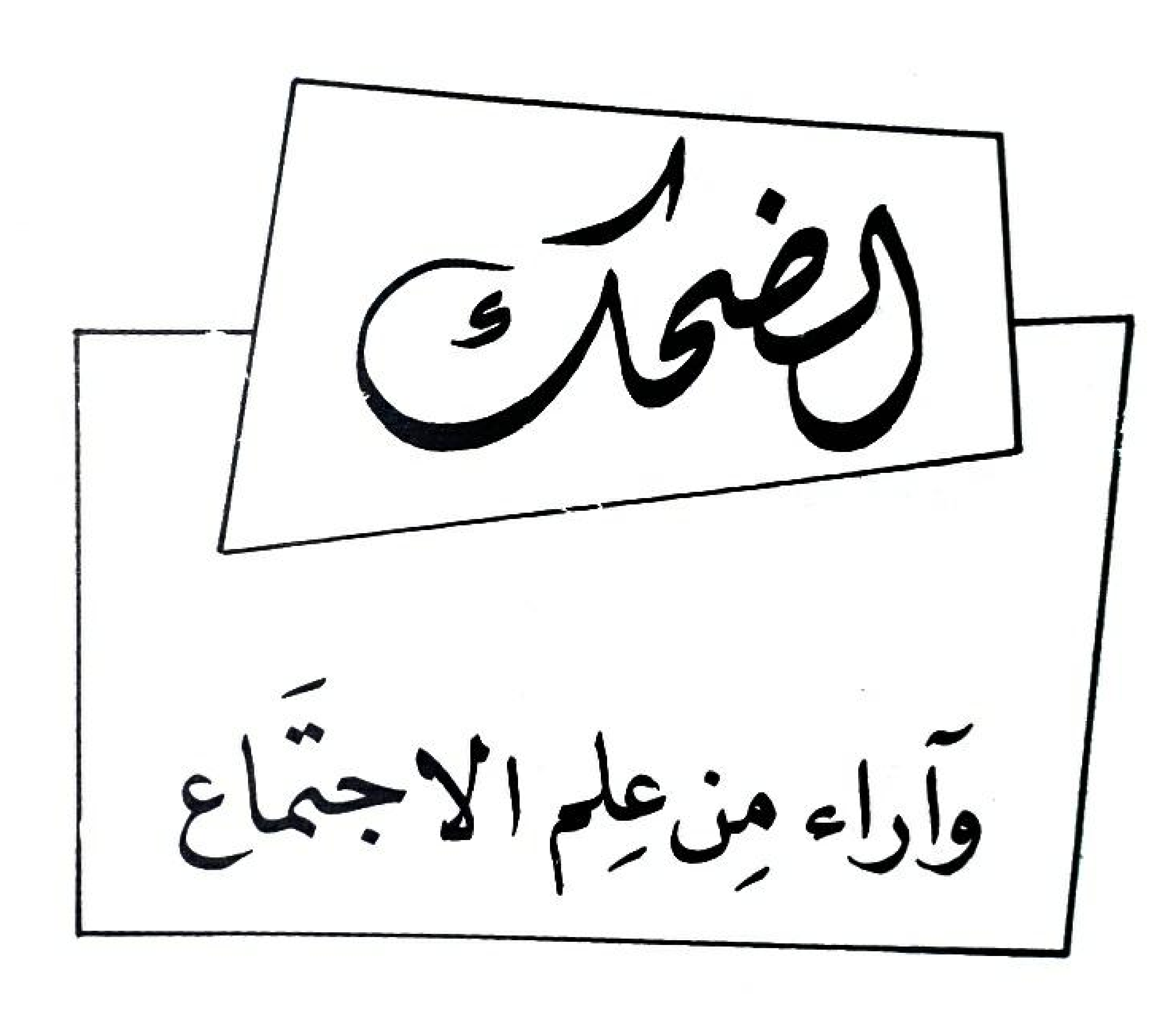
---

(٩) الدكتور علي الراعي، الهلال ص٣٣،٣٥

ومإذنبه لنضحك منه؟ سوى التشفي او الاحساس بالانا الاعظم، بل ان في ذلك ارضاء في داخله، من هذه العاهة او هذا المرض قد اصابه، هذه الحركات لاتضحك الا من امات قلبه كثرة الضحك الفارغ ودفعه النقص المنطوي عليه في اعماق نفسه، محاولا اثارة الناس ودفع انتباههم وشعورهم الى نقص الاخرين خوفا من اكتشاف عيوبه التي يشعر بها في قرارة نفسه او التي اخفاها اللاشعور ولعل هذا هو نوع الضحك الذي قال عنه الرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف..

« كثرة الضحك تميت القلوب »

وهناك اتجاه آخر نربط به ظاهرتا الضحك والفكاهة وهو اتجاه وثيق الصلة بالعلاقات الجنسية، وهذا النوع من الضحك ينطوي على عنصر تخفف او تمرد او راحة، لانه يحررنا الى بعض الوقت من اسر الامور الاجتماعية والنواهي الاخلاقية التي تفرضها علينا الجماعة، فيترك لنا الحرية في ان نتحدث عن تلك المسائل المحرمة التي فرضت علينا ومن الطفولة التحدث بها واعتدنا في الغالب ان نتحاشى او نتجنب الاشارة اليها.


الضحك
وآراء مِن عِلم الاجتمَاع

الضحك وآراء من علم الاجتماع

السخرية تختلف عن الطريفة والنكتة وانها اكثر قسوة ومدعاة لاثارة الضحك والالم معا. وابسط صورها قد تخدم المحيط الاجتماعي لتقويم وتعديل الشئ الخارج عن المألوف الاجتماعي.

وان تكون السخرية مؤثرة يجب ان لاتكون مفزعة وتذهب عميقا في احساس الشخص، فاذا ماأثارت السخرية الخوف والغضب والاخلاق فانها سرعان ماتقضي على الضحك وتحطم القصد من السخرية ذاتها[1].

(1) PADDINGTON, PSYCHOLOGY OF LAUBHTER P.92

وانه لمعترف من اغلب الكتاب والفلاسفة عن الضحك بان هذه الظاهرة تخدم الواعز الاجتماعي، وتنال كل مايخرج عن القانون والصف العام.

وكما عبر «ابن جونسون» بان وظيفة الاحداث الضاحكة تعيد توازن حماقة الانسان بجعلها ساخرة!!

وان قوة الضحك كواعز اجتماعي اقرت من اغلب الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وربما كان «جان جاك روسو» هو الباحث الاجتماعي الوحيد الذي انكر ذلك.

كل مجموعة اجتماعية تعتمد في بقائها على نظام عرف اجتماعي راسخ في عقول ابنائها، وعندما نكسر هذه الآراء او المفاهيم فان حالة من السخرية الاجتماعية تظهر بوضوح معتمدة على القانون الاجتماعي هادفة اعادة توازن ذلك المجتمع ومفاهيمه المتوازنة.

وعلى هذا فان السخرية الاجتماعية تعبير عن مقاومة المجتمع الى محاولة النيل من تقاليده المتوارثة لتعيد اليه توازنه السعيد، وهذا مافعله «الجاحظ» بكتاباته محاولا السخرية من الدس الشعوبي على العروبة والاسلام!

فعندما يتطلب الموقف ان نبكي فاننا نعترف في اعماقنا بان اعادة توازن وضعنا وفق مفاهيمنا الاجتماعية، تكون ضرورية، وعلى هذا فان الضحك يعيد الينا وضعنا المتوازن اجتماعيا وفسلجيا فتحدث حالة الانشراح والتي تعزز الاعتقاد بان كل شئ على مايرام؟

ونفسيا فانها تحطم كل الافكار المتدفقة وعلى هذا تمنع تغيير القيم الاجتماعية من ان تظهر للوجود.. ان ظاهرة الانشراح تمنع عملية الحزن والكآبة التي قد يتطلبها الموقف من الظهور، وتخدم وظيفة معينة في حياة عقل الانسان وفي نظام بناء المجتمع، وربما كانت هذه هي الوظيفة الاساسية للضحك.

كما يقرر عدد كبير من علماء النفس ان الضحك والفكاهة دلالة اجتماعية واضحة بسبب تأثرهما بالوسط الاجتماعي المباشر والظروف الحضارية العامة وقد لعبت ولم تزل تلعب الفكاهة والطريفة والنادرة دورا في النقد السياسي، ويجد المجتمع متعة وتسلية في اثارة النكات وتناقلها عن السياسة والسياسيين وقد استغلت

الفكاهة في شتى العصور والازمان في نقد المجتمع وسياسة الحكم او الحاكم نفسه باعتباره المسؤول الاول والاخير في الازمنة القديمة المتخلفة عن تسيير دفة الامور كافة.

والنقد الاجتماعي والنقد السياسي يحتاجان الى شعب مهيأ لذلك والى نكات قادرة لاثارة الرأي العام، والرأي العام يطرب لهذه الحكايات وهذه الصور المبسطة، ومن هنا بدأت سلسلة طويلة من طرح النكات والنوادر حول اساليب الحكام وكتابة القصص والنوادر الطريفة.. الصحيحة منها والملفقة التي تبتدعها افكار وخيال مؤلفيها وتطرح للناس عامة في هذا الباب من النقد، حيث كانت تجد مناخا خصبا لنموها وانتشارها اولاً، ولامتزاجها بالهزل وقصر القصة ثانيا، ويحتاج هنا مؤلف النكات والنوادر لقدرة عالية من الذكاء والمام واسع بالظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بها واحساس عميق بشعور الجماهير حتى تنمو النكتة وتزدهر وتنتشر بين اوساط الناس، وان تكون النادرة قصيرة لطيفة سهلة التداول وتعالج موضوعا يشغل هموم الناس وتفكيرهم.

وفي الوقت الحاضر اصبح هناك اناس متخصصون لهذا النوع من الفن، ولكن اخذت الطابع الفني الصوري، الكاريكاتيري، فنجد صورة تحكي قصة معينة مع تعليقة خفيفة زيادة في الايضاح او ان تترك الصورة لتعبر عن نفسها وكان سابقا وحيث لا طباعة ولا مجلات دورية ولا صحف يومية فان النقد السياسي كان يأخذ الوانا متباينة على هيئة صور ورموز مضحكة، او قصص لبلاد لا وجود لها، او شخصيات وهمية، او حوار على السنة الطير والحيوانات كما فعل ابن مماتي بقصته المشهورة « الفاشوش في حكم قرقوش» للنيل من شخصية الحاكم «قرقوش» الذي امتاز بالصرامة والحزم والعدل.

وسواء اكانت صحيحة رواية ابن مماتي ام انها كانت من نسج خياله وحقده الدفين وشعوبيته المتخفية للنيل من هذا الحاكم القوي، او من رئيسه الاعلى القائد المسلم صلاح الدين الايوبي، فلو رجعنا الى دراسة خبايا التاريخ وتحليل التيارات السياسية والدينية والمذهبية التي كانت سائدة انذاك. ورجوع الى المنطق وتحكيمه لما امتازت به شخصيته وعدالة وعقلية صلاح الدين الايوبي، فلا يمكن ان يختار شخصية ظالمة مهزوزة كما صور «ابن مماتي»، (شخصية

قرقوش) حيث امتازت عقلية وشخصية صلاح الدين بالحنكة والعقل والعدل واختار (قرقوش) لما يمتاز به من قدرة ادارية وحزم وصرامة في تطبيق العدل. ليتمكن من حكم القاهرة القاعدة الرئيسية لحكمه وماكانت تموج به من تيارات متضاربة ومراكز قوى متعددة في السياسة والجيش.

وفي وقت الحروب وعندما يحدق الخطر بالامة فلابد من ان يكون هناك قائد محنك في الجبهة وحاكم حازم صارم يسيطر في الداخل، والقضاء على الرتل الخامس الذي قد يضر كما يضر الاعداء في ساحة المعركة وبخاصة والامة تمر في فترة انتقال سياسي من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية.

وفعل قبله -ابن المقفع- الفارسي الحانق الحاقد حيث استغل قدرته واسلوبه الادبي ليترجم كتاب «كليلة ودمنة» لينقد به سياسة الخليفة - ابي جعفر المنصور - المؤسس الفعلي لدولة بني العباس، وجاء نقده باسلوب قصص ورموز وفكاهة على السنة الحيوانات والبهائم.

وكذا فعل الكاتب ـ الجاحظ ـ في رسالة التربيع والتدوير في نقد «احمد بن عبد الوهاب».

وكذا فعل «ابن دانيال» الطبيب اليهودي في تأليف مسرحية «طيف الخيال» والتي صوّر فيها نقدا مريرا من الاحوال العامة في ايام حكم «الظاهر بيبرس»، وكل مافعله «الظاهر» انه كان مشغولا في محاربة الاقوام الهمجية التي اخذت تدك اسوار المدن الاسلامية.

واكثر من هذا وذاك ان «الظاهر بيبرس» كان مصلحا اجتماعيا حيث منع المخدرات والحشيش وبشكل فعال، وكأن رد المعتدين على التخوم الاسلامية لم تلق استحسانا لدى اليهودي الحاقد، وهكذا كان اليهود ومازالوا آفة المجتمعات والساعين الى تحطيمها بانتشار الموبقات والمخدرات، فاثارت اعمال «الظاهر» الاصلاحية حفيظة ذلك الحاقد على العرب والمسلمين فكتب مسرحيته الهزلية تلك، ولكن وللاسف وجدت رواجا لانهم اخذوا معانيها الهزلية السطحية ولم يتعمقوا الى اغراض وهدف «ابن دانيال» اللئيمة.

وفي وقتنــا الحــاضر - في القرن العشرين - حيث تعمقت الثقــافــة وانتشرت وتــوسعت مــدارك النـــاس وتفتحت عقــولهم الاجتماعيــة والسيــاسيــة والنفسيــة والفنيــة، وخــاصــة في العالم حيث ازدهرت الحضــارة وانتشرت الــديمقراطيــة بهــذه الصيغــة او تلــك، والحريــة بمفهــومهــا الــواســع السيــاسي والاجتماعي، نرى ا... الطرائف حتى القاسية منها تلقي رواجا منقطع النظير ويتلقاها الحكام بابتسامة مرحة وطيب خاطر ويسألون عنها، ويتابعون مايقال عنهم هنا وهنا، وبخاصة الرسوم التخطيطيــة - الكاريكاتير - فتارة تصور هذا الحاكم، حملاً واخرى ذئبا وثالثة اسداً ورابعــة لصا، وهكذا... ويضحك عليها الحاكمون.

اذكر مرة كنت في دورة علميــة في انكلترا سنــة ١٩٦٨ وضمن التنافس الانتخابي وتحدث حاميــة المعركــة الكلاميــة والصحافيــة وبروح ديمقراطية وحرية بالتعبير والقول والنشر والتجمع والتظاهر مع او ضد اي من المرشحين.. وغدا التنــافس في منطقــة كامبرج على ...الذكر، محرجا بين مرشح العمال ومرشح المحافظين.. وذهب السير

هارولد ولسن، وكان حينئذ رئيسا للوزراء، فتلقفته المعارضة بالبيض والطماطة واصابته بيضة على وجهه سالت محتوياتها على خده، فلم يغضب ولم ينفعل بل مسح وجهه بيده ورفعها الى الجماهير الغاضبة الهاتفة ضد حزبه وخاطبهم قائلا:

«لاحظوا كم نحن حكومة صالحة حتى البيض الذي تقذفون به وجوهنا طازج وغير فاسد وتحول الغضب الى ضحك..»

وفاز المرشح العمالي.

وفي الولايات المتحدة في عهد الرئيس - كارتر - انتشرت النكتة التالية:

«اعلن تاجر ادمغة للبيع ثلاثة ادمغة، دماغ الرئيس الامريكي، ودماغ طبيب مشهور في الولايات المتحدة، ودماغ عالم فيزياء بالذرة، ووضع تحتها الاسعار

- دماغ الرئيس الامريكي ١٠٠٠ دولار
- دماغ الطبيب المشهور ٣٠٠ دولار
- دماغ عالم الفيزياء ١٠٠ دولار

وفي زاويــة وضــع الســؤال عن السبب لهــذا التفــاوت في الاسعــار، وفي الجــانب الآخر وضع الجــواب بــان دمــاغ الرئيس الامريكي سليم لم يستعمل بعد!

وضحك الشعب الامريكي كثيرا لهذه المقارنة.

ان النقد الاجتماعي والسيــاسي يحتــاج الى اثــارة الرأي العــام والرأي العام يطرب لهذه الحكايات وهذه الصورة المبسطة في النوادر والفكاهــات، وان اشــد مــايثير الرأي العــام هــذه الطرائف المبسطــة السهلة التي تعالج مواضيع عامة يتحسسها عامــة النــاس وانهــا تسري سريان النار في الهشيم.

وهكذا ضحك الناس منذ قــديم الزمــان ومــازالوا يضحكون من البديهات ومن مزلقة الحكام والمتسلطين وكما جاء في احــد الكتب القديمة وتناقلها الادباء والكتاب:

« ياسعادة الحيوان وياشقاوة الانسان في حكومة هذا الزمان »[٢].

---

(٢) الهلال ص٦٦-٧٦

والـذي يعـود الى تفحص ودراسـة الاحـوال الاجتماعيـة والسياسية في اي عصر من العصور السالفة، لوجد ان عامة الشعب لم تكن تتمتع بشئ من الحقوق وان الارض وماعليها من عبيد توزع بين السلطان والامراء، وجميع المكتسبات تقتصر على الطبقة الاقطاعية الحاكمة مما يؤكد المظالم السياسية والاجتماعية قد تكون فادحة وفظيعة فتثير حفيظة الناس ولو في السر فتنطلق السنتهم بالوان السخرية والاستهزاء، يتناقلونها انتقاما وتشفيا، ويكتبها المؤرخون والادباء في الخفاء لنجدها عامرة في كتب التراث وكتب الادب والتاريخ مليئة بتلك القصص والطرائف الساخرة.

اسلفنا من قبل بان بعض العلماء المحدثين ومنهم «فرويد» يذهبون الى ان الفكاهة قامت بدور هام في حياة الناس، لانها تستبعد الالم، وتحفظ لهم توازنهم النفسي وترابطهم الاجتماعي والانساني، حيث زود الانسان بامكانات هائلة للتهرب من فرط الالم، من السكر الى الوجد الصوفي الى الامراض النفسية والعقلية الى فقدان الذاكرة وغياب الاحساس.

فالفكاهة تحرر الانسان من هذا الالم المفرط لتعيد اليه صحته وتوازنه ولو مؤقتا، وهذا ماينطبق على الشعوب والامم، فلا شك ان الفكاهة الساخرة من المستبدين كانت تحفظ للشعوب هذه الصحة والترابط السوي التي تتألم منها الشعوب بما يحيط بها من ظلم واضطهاد وامتهان لحرية الانسان ومعالجة مايحيط بها من قصص مليئة بالعجائب والنقائض والنقائص والسخرية والغرائب. ولكن المجتمعات لاتفقد قدرتها ورغبتها في رفض الالم ومايحيط بها من ظلم وكبت وقهر وتمزيقه بالنكتة وفضحه باللسان والهمزة!

فان السخرية كانت ومازالت سلاحا قويا يمزق الاستبداد ويقضي على نشوة المستبدين ويصفهم بالحماقة والشذوذ والاستهتار والغباء[٣].

وقد تسير وتنتعش الفكاهة والنكتة سوية مع انتشار الاشاعة وانتقالها فان المناخ الذي تعيش فيه الاشاعة السياسية هو نفس المناخ الذي تنتعش فيه النكتة الاجتماعية.

اراد كاتب ساخر ان يتندر على العلاقة بين الشعب السوفيتي

وتبعية المعسكر الاشتراكي في فترة اشتداد الازمة البولندية، فرسم تخطيط هازل لقطيع من البقر ارسل من الاتحاد السوفيتي هدية الى شعب بولندا الذي اثر به الفقر والجوع، وصور برجنيف متألما جدا من هذا الفقر الذي الّم بالشعب الصديق الذي دفعه الى اهداء هذا القطيع من البقر الذي عبر نصفه الامامي داخل الحدود البولندية ولم ينقل نصفه الثاني، ومعه اقتراح، برجنيف «حسن جداً، تولوا انتم اطعام البقر وسنتولى نحن حلبها!!»

ان النكتة والنادرة والطريفة، فن من فنون الحياة فهي تخضع كما يخضع اي فن سامٍ آخر للتعبير عن فكر الفنان، سواء اكان الفنان شاعرا او رساما او نحاتا او صانعا للنكتة فهي تعبير عن هدف وفكر الفنان.. وان لها شكلا ومضمونا، اطارا وصورة.

اي ان النكتة الفنية لاتستهدف الاضحاك فحسب وانما تهدف ان تسخر من شئ مافي حياة الانسان، اجتماعيا او اقتصاديا او ثقافيا او سياسيا وتمس بذلك عصبا حساساً في اكبر مجموعة من الناس، محدثة فيهم وعن طريق السخرية والنكتة، مايشبه الاثر

التطهيري، وقد تتحول احيانا ووفقا لخطورة مضمونها من نكتة الى قصة قد تعبر عن واقع في منتهى الجد.

والنكتة قد تكون لونا من الوان العلاج النفسي والاجتماعي يعالج بها ابناء الشعب مايجيش في داخل نفوسهم من كبت واحساس اتجاه نقص وعيب واختلال وانحراف.

وهي تعبر عن سلوك سلبي يلجأ اليه ابناء الشعب لعجزهم عن الافصاح او التعبير باسلوب واضح آخر، كالشعر، والخطابة والصحافة والثورة لرد الظلم والقهر الذي يشعرون به.

وهي في بعض الظروف اعداد وتحفيز وتنبيه الى الثورة، انها ارادة فعالة للمقاومة والانتصار، وتغدو النكتة من امضى الاسلحة واقواها وتتحول الى سلوك مدمر بالرغم مما يوحي به اطارها الخارجي من برود وضعف وسلاسة ولين وسلبية.



النكتة نشاط اجتماعي.. والانسان لايضحك لوحده، واذا ضحك الانسان لوحده اتهمه الناس بالشذوذ والشرود وربما الجنون.. او انه تذكر نكتة ضحك عليها مع جماعة.. وهذا يعني انه قد امتزج نفسيا مع ناس آخرين..

الا انه لايضحك لوحده على الاغلب، انما يحتاج على الاقل الى تصور ووجود آخرين.. لاحداث ظاهرة الضحك.

فالنكتة مشاركة وجدانية ونفسية بين الجماعات.. وهي اشبه بصوت النفير الذي يدعو الى الاستعداد وبدء المعركة او الفرقة الموسيقية وامتزاج الانغام لاحداث النغم المطلوب الذي يطرب ويسر الجميع.

فالموسيقى العذبة والشعر الجميل والقطعة النثرية البديعة تثير فينا الاحساس بالسعادة وترهف الحس وتصقل المشاعر.

وكذا الفكاهة والطريفة والدعابة جميعها تثير فينا النشوة والاحساس بالسعادة والانشراح. والنكتة هي تطهير النفوس للانطلاق الى الانسان من حيث هو انسان.. فعندما نضحك على مافي الانسان من نقص وعلى مافي عالم الانسان من عيوب ونقائص

ورذائل فانما نضحك على انفسنا لاننا جزء متكامل من طبيعة الانسان، وبهذا مشروع مباشرة واستعداد لاصلاح عيوبنا وصولاً الى الانسان الامثل.

تنتعش النكتة وتزدهر في المجتمع المرهف الاحساس فعندما تتأزم المواقف وتتلبد الغيوم في مجال التفكير وعلى حين غرة تنفرج الاسارير وتحل العقد ويحل الموقف كله بنكتة ساخرة.. فكم من موقف محرج، او ازمة حلّت بالجماعات ويعم الوجوم وتتلبد الاذهان، وتحيطها غلالة من الضباب الكثيف، وتتجمد العقول ويعقم التفكير من اتيان اية فكرة.. لنجد ان الموقف كله يحل بنكتة ساخنة او سرعة بديهة من احد الحضور.. ومن ثم بعد انفراج السرائر وابتهاج الوجوه تتفتح القرائح ويأتي سيل من الافكار لمختلف الحلول المناسبة.

النكتة كالثورة، وتبرز الثورة عندما تصبح السلوك الوحيد امام الناس والجماهير للتخلص من الكرب والضيق الذي يحل بها.. فعندما تقفل الامور امام الشعوب للتخلص من الظلم والاضطهاد لارادة

الجماهير، وهكذا تقارن النكتة بالثورة حيث تغدو النكتة هدفاً لاضحاك الناس، والتخفيف عنهم.. وضحكهم هو تعبير عن تأييدهم للمضمون البعيد للنكتة.. وبذلك رفعاً لمعنوياتهم وشحذاً لهممهم للتحرك والمقاومة استعداداً للثورة فالمعركة.

ان النكتة والطريفة والفكاهة اساليب مهذبة لتطهير النفس واحداث التوازن الانساني ضد كل مايحيط به من ضغط وكبت واضطهاد.

ويذهب البعض الى ان هناك فرقا كبيرا بين النكتة والسخرية والهزء، فاذا كان الشذوذ في العادات والسلوك يبعث على الفكاهة بصفة عامة، فربما تحولت النكتة والفكاهة الى هزء وسخرية وكثيرا ماااتاحت الفرصة للخصوم والفاشلين للجوء الى السخرية للنيل من الشخصيات الناجحة او المتألقة عن طريق التشهير بسلوكها، والبحث عن اية ثغرة او منفذ اذ يلجأون من خلاله لارضاء العامة، ليعوضهم عن احساسهم بالنقص ازاء الذين يفوقنهم في المكانة والمواهب، فكم من عبقريات تألقت كالشهب فاثارت كوامن

الحسد لدى البعض وبسبب سلوكها المتعالي الغريب او الهنّات غير المقدر لها او المستهان بها، حيث مكنت خصومها من اطفاء شعلتها وسد الطريق امامها وانتهى بريقها واشعاعها..

ويقول «اوسكار وايلد» الكاتب الايرلندي:

« لقد كان في نيتي ان اعيش على ان تفارقني الابتسامة فراقا لا لقاء بعده... وعلى ان يلازمني طابع الحزن ملازمة دائمة، فلا يكون بيننا انفصال، وعلى ان اجعل كل بيت ادخله بيت احزان ومأوى هموم، وعلى ان اجعل اصحابي يمشون وهم في حزن يحيل الشعر الاسود الى شعر ابيض.. وذلك لكي اعلمهم ان الكآبة هي الحياة!!

ولكني اليوم غير الامس.. فقد رأيت غير لائق بي.. بل رأيت من الجحود في حق اصحابي ان القاهم عابسا واجما فيصبحوا مضطرين الى ان يلقوني من باب المشاركة وهم اكثر وجوما وحزنا، واجب عليّ ان اتعلم منذ اليوم كيف ابدو سعيداً قرير العين مسرورا..

وتبيّن له ان الابتسام واحتمال الحزن هما سر الحياة... بل ان المبتسمين هم الحزانا الحقيقيون في هذا العالم.. وهم الفاهمون المترفعون الذين يملكون السر المختفي بين الزحام والضجيج.. اما الكآبة والدموع فاصحابها عابرون على السطح..

وباستطلاع موسع ودراسة مستفيضة استطاع احد علماء الاجتماع ان يجد ان معظم «الابطال» كانوا يتميزون بالبشاشة والروح المرحة.. بالرغم من ان البطولة في حقيقتها احتمال المتاعب والمصاعب والتعرض لالوان عسيرة من الاحزان والالام والمآسي.

فكل شئ في نظر «البطل» كما يقول المفكر «امرسون»:

« ينبغي ان يكون «البطل» مرحا كشدو الكناري »

ان البطل يختار التفاؤل والمرح حتى وهو غارق في لجة الاحزان.. وابتسامته قوة تساعد على اقتحام المصاعب، وتنقذ روحه من التمزق والانهيار .

وتعيد اليه توازنه وقت المصاعب، وتحافظ على روحه المعنوية شامخة عالية تناطح السحاب!

فانه يعيش وهو يبتسم ويتألم وهو يبتسم..



ويمر محترقا والبسمة لاتفارق شفتيه، ويصعد درجات المشنقة ساخرا يدك اخشابها باسفل حذاءه.. او انه يكشف صدره للرصاص وهو يبتسم..

انه بتلك الابتسامة يدلل على قوته وتماسكه وانه اكبر من الحزن واكبر من المصائب، ويحتقر مهازل الحياة وآلامها الزائفة.. لانه يشعر بالسعادة الحقة، بتماسك روحه مع مبادئه وقيمه.. انه نوع من السمو الانساني، وقد روت زوجة الاديب العالمي تشيكوف، انه اضحكها بعمق قبل موته بساعات وهو مريض ومسجى على السرير.. ويعرف باحساسه وادراكه انه مشرف على الموت، ويفارق الحياة الى العالم المجهول.. وروى لها نكتة عن قصة يروم كتابتها اضحكتها من الاعماق.. وبعد ساعات اسلم الفنان الضاحك الحزين الروح...

ان روح المرح المنبعثة من الحزن العميق لاتتوفر دائما الا في اشرف الناس واكثرهم نبلا وصفاء واجتهادا في تجميل الحياة.

ان الابتسام هو سر الحياة.. هو الارتفاع فوق اذاها، هو الكبرياء امام مشكلاتها.. هو الجهد الجبار بوجه عاديات الزمان..

واعتصار المحبة من اشواك العواطف الصغيرة هو الاستغناء الجميل والاكتفاء بسعادة الرضا الداخلي وتدريب النفس على الاحتمال(٤).

وفي فترة مر بها مجتمعنا المتطور، كان للطب والاطباء والمستشفيات حصة كبيرة من الطرائف والنوادر التي يتناقلها ابناء المجتمع متندرين من هذا وذاك، يتداولها الناس بسرعة..

ويتلاقفها القصاصون في جلساتهم الخاصة والعامة، واسبابها كثيرة ودوافعها متباينة، ظهور الاطباء كطبقة مثقفة متعلمة، متميزة عن شرائح المجتمع الاخرى، وطموح الكثير الى دراسة الطب، ويغدو اطباءاً طلبا للشهرة، او اعتقادا بانها صنعة مربحة..

او حتى يحمل لقب «دكتور»! ولكن شروط القبول وقلة العدد وصعوبة الدراسة واسباب كثيرة اخرى تقف حائلا دون ذلك، كثرة الامراض والمرضى وقلة الاسرة والممرضات والمستشفيات وندرة في الاطباء والاختصاصات تزيد من الاخطاء.. وابتعاد في المواعيد وارتفاع في الطلب ونظرا لما تلك الاخطاء من علاقة وثيقة بحياة الناس وارواحهم وآلامهم، تجعل اي خطأ او اهمال مردوده كبيرا

(٤) رجاء نقاش ص ٥١ وص ٥٢.

ونتائجه وخيمة ويتفاعل ويتعاطف الناس بشكل واضح ومحسوس مما يثير كوامن المتحدثين والناقدين ومتصعي الانسانية وكل على طريقته الخاصة وباسلوبه المعين فهذا يرويها باسلوب مأساوي والآخر بشعر هجائي والآخر باحالة القضية كلها وما فيها الى الحاكم العادل لينظر في القصاص يوم تحشر النفوس ولا شافع الا اعمالها... والآخر بالاسلوب الهزلي الساخر ليوظف امكاناته من نقد الطب والاطباء بهذه النكتة او تلك الطريفة او النادرة او السخرية، وفي هذا ارضاء للنفس من ناحية وتطمينا للانا الاعظم حيث يجد في ذلك عزاء لانه فشل في ان يصبح طبيبا..

وهو الآن يجد نفسه يسمو ويعلو ولو بالخيال بالنيل والتندر على اخطاء الاطباء او انها الاسلوب الصحيح لاثارة الناس والمجتمع على تلك الاخطاء التي ارتكبها ذلك الطبيب.. بحق لبنة من المجتمع.. انها نوع من العقاب الجماعي يتناقلها بين الناس، والنقد والنيل من مرتكب ذلك الخطأ بحق بعض المجتمع..

والآن وبعد ان اصبح التنافس ماديا ويقاس الفشل

والنجاح بين مـايستطيع ان يحصل عليـه الانسـان، الشـاطر من جمع المال بـاقصر وقت ممكن، مهما كانت الاسبـاب.. المهم الغـايـة وليس الوسيلة..

وتبرز مرة اخرى النكتـة والطريفـة والسخريـة لتتجـه الى شرائح اخرى من المجتمع التي اثرت على حسـاب المجتمع ككل.. انها اتجهت نحو المقاول والحداد، والنجار، والفيتر..

وتمكن الاطباء ان يأخذوا نفسا عميقا بعيدا عن اعين الحساد والسنة النقاد وسخرية المحدثين والقصاصين..

ومـع هـذا يبقى الطب والاطبـاء مميزين في كافـة المجتمعـات والطبقات، وعلى مر العصور لما لهذه المهنـة من خصوصيـة انسـانيـة، ونفحـة روحيـة، فلا بـد وان يـدرك ذلـك الاطبـاء ليحـافظـوا على قدسية المهنة وكرامة الطب.

والمجتمع يطمـح ان يحصـل لـدى الاطبـاء وفي مهنـة الطب نفسها خلاق مايتوقع الحصول عليـه من الشرائح الاخرى في المجتمع.. مهما تنوعت وتبـاينت المهن الاخرى، حرفيـة او مهنيـة او ثقـافيـة.. تبقى مهنــة الطب مميزة، منــذ ان كان الطب وقفــا على الكهـــان

والعرافين والحكماء، والى يومنا هـذا.. وامتـداداً الى المستقب القريب او البعيـد.. نحن سـائرون في الطريـق الى مجتمـع يصبح الطب فيـه منفعة اجتماعية عامة فلا تكون هناك متاجرة بارواح النـاس.. وقـد تختفي فكرة العيادات الخاصـة، والمستشفيـات الاهليـة التي يمتلكها الاطبـاء.. حيث قـد تتغلب او تطغي مصلحـة الـذات على حسـاب المرضى والمرض ومن ثم سمعـة الطب والاطبـــاء.. ممـــا يثير حفيظـة النـــاس، وتـوضـع القصص المكبرة او المحـورة او المفتعلـة للنيـل من الطب والاطباء.

وانـه لافضل للطب والاطبـاء والمجتمع.. ان تعم المستشفيـات العـامـة، ويغـدو المجتمع مسؤولا تمام المسؤوليـة عن صحـة المواطن.. ومثـل هكـذا نظـام خـدمي طبي يحتـاج الى طبيب مـاهر في عملـه وعلمه.. وهذا لايكفي، لانه يحتاج ايضا الى طبيب يجد في نفسه من الحوافز الذاتية المقنعة التي تدفعه الى العمل دوافع معنو ية، ومادية..

بينمـا تطغى الآن الـدوافع المـاديـة في العمـل على الـدوافـع المعنو ية والتشجيعية.

عينة نادرة الطبيب المثقف ثقافة عامة اضافة الى علومه الطبية.. ان لم تكن غريبة في وسط مجتمع سادته المسابقات المادية..

ان مفهوم الطب اليوم لايحتم الثقافة العامة البعيدة عن الثقافة الطبية.. اما طبيب المستقبل.. الطبيب الذي يجب ان يكون فان ثقافته تعتبر جزءا اساسيا وحتميا من عمله.. ان ثقافته العامة هي التي ستمنحه «معنى» لعمله وتضفي عليه رضا النفس وراحة في العمل وحصانة ومنعة من السنة السوء.. وسخرية من في نفوسهم مرض..

سوف يتطور مجتمعنا حتما الى الحد من عنصر الربح المغالى فيه العمل الطبي..

فيصبح الطب للناس، لا وفي هذه الحالة ان يعرف الطبيب واجبه الانساني ازاء مجتمعه معرفة عميقة وبادراك ناضج..

اسلافنا الاوائل اشادوا حضارة وخلقوا تراثا لايضاهيه تراث آخر على امتداد الامم والاقوام والحضارات الاخرى.. والعامل المؤثر في بناء تلك الحضارة وارساء ذلك التراث.. هو انعدام الدافع المادي فى عمله مهما كان ذلك العمل، هندسيا، رياضيا، طبيا، فلكيا،

تاريخيا، فلسفيا..

كان العالم يتضور جوعا وهو يقرأ على ضوء القمر.. ويكتب على ضوء السراج الخافت وكان هناك هدف سام ونبيل في المقصد.. التنافس المادي لايخلق جيلا ولا يشيد حضارة ولايخلق تراثا ولا يخدم الانسانية.

وكانت الفكاهة، وحتى الآن تلعب دوراً مهماً في تنبيه الناس وتوجيههم والحفاظ على مسيرة المجتمع الصحبحة..

والفكاهة دليل الرقي عند الامم.. وكلما صفت اذهانهم وكرمت اخلاقهم، وسمت الفكاهة الى مستوى رفيع.. وقد يكون مايضحكنا في الفكاهة على جانب من السطحية والبدائية..

وقد يكون مايبهجنا في غاية العمق والرصانة.

بالعقل والمنطق اصبح الانسان انسانا، ولكن بالابتسام والفكاهة والضحكة الصافية البريئة تهذبت نفسه وسمت انسانيته وصقلت مشاعره واحاسيسه.

وضحك العقل صامت هادئ يعبر عنه ببشاشة الوجه ورضا

النفس وانبساط في تقاسيم الوجه او بايماءة عفوية او ضحكة هادئة.

ليس الضحك العميق قهقهة عالية وصوتا صاخبا وانما انفراج الاساريروانعكاس معبر هادئ على تقاطيع الوجه عندما تحدث مفاجأة عنيفة ومفارقة لطيفة ونادرة ظريفة..

الضحك ظاهرة اجتماعية، فلا يضحك الانسان وهو بمفرده واذا ضحك شخص بصوت مسموع وهو بمفرده فقد يشك في امره بان مسه شئ من الجنون او انتابه خلل في مراكزه العقلية... او انه من ناحية اخرى قد تذكر قصة مضحكة او نادرة او طريفة حدثت له مع مجموعة اخرى من الناس او قرأها عن مجموعة اخرى من الاشخاص.

الضحك عنصر ضروري في الحياة وذو اهمية كبيرة في حفظ الصحة واحداث التوازن العاطفي وفك التوتر النفساني الدائم(٥).

---

(٥) هنري برجسون، الضحك ص٦

وتتخذ الفكاهة اشكالا عديدة، فمنها النادرة، والملاحة، والتورية، والتهكم، والتغفل، والسخرية، والدهاء...

والفكاهة سمحة لطيفة لاتكلف فيها ولا عناء وهي خالية من البغض والحقد والخبث..

قد نضحك اطفالنا ومن انفسنا ومن اصدقائنا ومن اعدائنا.. وقد نضحك احيانا من غير سبب!!

وقد نضحك بالعدوى لان غيرنا قد ركبته موجة الضحك، ويضحك الانسان، وبخاصة وهو طفل من الدغدغة والتخميش في مناطق حساسة من جسده، في الابط، في اخمص القدم، وراحة الكف.. لاسباب وظيفية «فسلجية» ولكن اذا زادت شدة الدغدغة والتخميش فقد تنقلب الى منغصة ومزعجة ومنفرة.

نضحك من التناقض الكبير والمفارقات المفاجئة، نضحك لان الضحك تحدي للعرف وتجاوز لقوانين المنطق.

وقد سأل افلاطون نفسه؟

- لماذا نضحك؟

واجاب على السؤال بقوله:

لنا نضحك من تعاسة الآخرين وشقاءهم وآلامهم! وتفسير ذلك، ان في هذا الضحك شعورا بالتفوق على هؤلاء المساكين الذين يقعون في مأزق او موقف محرج.

ان الضحك عند افلاطون هو اشباع الغرور في الانسان!!

وقد عالج ارسطو نفس المعضلة ويجيب على السؤال نفسه، لماذا نضحك؟

وتفسيره لايختلف بشئ عن نظرية التناقض!

أ- وترتكز نظرية التناقض او المتناقض عندما يحدث اختلاف مفاجئ وتناقض واضح بين الفكرة او الصورة الذهنية للاشياء وبين الواقع، وننسى منطلق الاشياء فنضحك ونسر.

فالتناقض مصدر فكاهة دائم وينبوع لاينضب للضحك، فعندما يبدو الفرق واسعا والبون شاسعا بين مطالبنا العليا ورغباتنا البعيدة والتوقعات المحتملة وبين الخيبة القاسية التي يمنى بها الشخص.

ب- والنظرية الثانية التي تحاول ان تفسر ظاهرة الضحك هي نظرية الغلبة والظفر، حيث يعتمد تفسيرها بان الضحك

الصاخب هو بقية من بقايا القهقهة المدوية التي كان يقهقها المنتصر في الغاب، الانسان المنتصر على اخيه الانسان المغلوب، او الانسان المنتصر على ابناء القرية.. انها ضحكة «كايد» و «صايل» في مسرحية «الصقر» من ابناء القرية بعد ان صادروا املاكهم ومواشيهم وحريتهم واقعدوهم في بيوتهم فكانت ضحكات «كايد» و«صايل» هي ضحكات الخبث والانتصار الظالم على الحق المقهور والارادة المظلومة.

فالانسان او الحيوان اذا دخل في صراع ضد الانسان او الحيوان.. هو صراع حياة او موت وهو تحفز القوى الداخلية للانسان.. وبخاصة الجهاز العصبي ومجموعة الغدد الصماء..

وتفرز هرمونات تساعد في حصول توتر شديد.. وتشنج العضلات وزجرة المشاعر الضارية من اجل البقاء.. وبعد انتهاء المعركة وانتصار المحارب وزوال الخطر يحدث ترويح للنفس وتنبسط الاسارير وتهدأ الاعصاب وارتخاء كامل لاجهزة الجسم المختلفة وهذا ماقد يعبر عنه بابتسامة عريضة او قهقهة عصبية ظاهرة.

فالضحك والبكاء تفريج عن طاقة مخزونة وعن كبت شديد، وان مركزي الضحك والبكاء واحد في الدماغ وكثيرا مانلاحظ من يضحك من شدة الحزن، ويبكي من شدة الفرح.

ويقول «ماك دوغال» عن الضحك:

انه حالة انفعالية ذات عدوى حقيقية فكما ان الحزن عدوى والتجهم عبوس فكثيراً مانرى انتقال ضحك واحد الى مجموعة الآخرين.

ان الشخصية تكون مضحكة على قدر ماتجهل نفسها، او تتجاهل نفسها وتتغابى عما يحدث فالمضحك قد لايشعر بذاته فهو يحتجب عن نفسه، وظاهر لكافة الناس، فلا مضحك فيما هو غير انساني، فالمنظر قد يكون جميلا لطيفا رائعا، وقد يكون تافها او قبيحا ولكنه لايكون مضحكا ابداً.

واذا ضحكنا من حيوان فلاننا لقينا عنده وضع انسان او تعبيرا انسانيا، وهكذا جاء تعريف الفلاسفة بان الانسان حيوان ضاحك، اي ان الضحك حركة اجتماعية تلفت النظر الى ذهول في

البشر والحوادث، فاذا ماانقلب الموقف وانعكست الادوار حصل موقف هزلي اي حدث منظر مضحك(٦).

يضحكنا القرد الذي يقلد الانسان.. والكلب الذي يجري عمليات حسابية او يدخن السكاير ويضحكنا المريض الذي يعطي نصائح صحية للطبيب، والمتهم الذي يحدث القاضي في الاخلاق.. والطفل الذي يلقي دروسا على ابويه، والتافه الذي يحدث الناس عن الكرامة والاخلاق وسمو الشمائل.

وقصة المرأة المشاركة التي الزمت زوجها بان يقوم بكامل اعمال المنزل وسجلتها له حتى لاينسى منها شيئا.. فاذا ماوقعت في قدر ماء الغسيل الحار، ابى الزوج ان ينتشلها من القدر قائلا لها وشامتا منها:

ان هذا ليس مسجلا في القائمة!!

او عندما يسأل شخص ما.. لماذا تقام الجسور.. فيأتي

(١) الفكاهة عند العرب ص٢٣

الجواب المضحك.. حتى يمر من تحتها الماء! او حتى يختفي تحتها السمك! او لماذا يمرض الناس؟ فيكون الجواب:

حتى يعيش الاطباء!

فان النكتة تجعلنا نبتسم على الاقل،، ولذا فان دراسة الضحك لاتكون كاملة اذا هي اغفلت تعمق طبيعة النكتة وتوضيح فكرتها وهناك فرق بين الفكاهة والتهكم، فعندما تخاطب طبيبا جشعا، او مرتشيا فانك تقول مثلا! انك تسرق من المرضى اكثر مما يتناسب مع طبيب حدث مثلك!

فتقول ماينبغي ان يكون متظاهرا بالاعتقاد بان هذا هو الكائن وانك تعرف بقرارة نفسك ان هذا هو خلاف الواقع الكائن وهذا هو التهكم!

والفكاهة عكس التهكم، وهذا ماذهب اليه «برجسون» في كتابه الضحك.

ولذلك كثيرا مانلاحظ ان يلاحق التهكم بعض الاطباء وهذا قصاص من المجتمع الذى ان لم يهدد ذلك الفرد بالعقاب تهديدا

فانه يلوح له بالمهانة.. وهي على هونها مرهوبة واحيانا مرعبة وهي اشبه بالقيد او السياج الاجتماعي.

ويذهب «برجسون» الى الحديث في هذا المعنى ويقول: ان الدواء الخاص للغرور هو الضحك، وان العيب المضحك في جوهره انما هو الغرور فمثلا «موليير» في قصصه يجعل المضحك من المصدر فتراهم يعالجون المريض كأنه وجد من اجل الطبيب او كأن الطبيعة نفسها ماهي الا تابع الى الطبيب.

ان الضحك يعاقب بعض العيوب، كما يعاقب المرض بعض انواع الافراط، وقد يقع المرض على برئ، وقد يفلت منه مستحق..



الفهرست

كتب للمؤلف

١- حفلة تعذيب صاخبة بغداد ١٩٦٤
٢- امراض المفاصل، بغداد ١٩٦٦
٣- الصيام والصحة، بغداد ١٩٦٦
٤- السلوك المهني للاطباء، بغداد ١٩٧٠
٥- السلوك المهني للاطباء، بيروت ١٩٨١
٦- شلل الاطفال، بغداد ١٩٧٠
٧- الظُهار، طبعة اولى، بغداد ١٩٧٥
٨- الظُهار، طبعة ثانية، بيروت ١٩٨١
٩- طرائف الاطباء، بغداد ١٩٧٨
١- الاسناد الطبي في الجيوش العربية الاسلامية، بغداد ١٩٨٤

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٧٨ لسنة ١٩٨٥
حصلت الموافقة بطبع الكتاب حسب كتاب مديرية التطوير القتالي ٢٠٨٨ في
١٩٨٥/٤/٢٣

تصميم الغلاف: وليد مهدي

نشر وتوزيع

مكتبة دار احياء التراث العربي

بغداد - شارع المتنبي

هـ. ٤١٥٣٠٧١

السعر

٨٠٠ فلس